عمر فاخوري

الباب المرصود

« دار المكشوف » بيروت

١٩٣٨

طبع من هذا الكتاب الف وخمسمئة نسخة على ورق عادي
و٢٥٠ نسخة على ورق ممتاز
و٢٦ نسخة على ورق «بوفان» مرقومة بالرقم الروماني من ١ الى ٢٦

رقم ١٢

هـذه فصـول تلمّ بموضـوع الشعر من بعض نواحيه ، اختارها المؤلف مما نشره في الحقبة السعيدة من عمره ، ما خلا «المأدبة» فهي حديثة العهد جداً ، ويصح ان تكون خاتمة الكتاب اذا جاز ان نعـد مقدمته « الشاعر وابناؤه » التي يستسقي فيها لعهد الصبى . قد لا يكون لها قيمة في ذاتها ، ولكن لها على الاقـل قيمـة تاريخية ، في حياة صاحبها وحده . اما قيمتها في «حياة الادب» فللقاريء الكريم ان يردها الى «ما قبل التاريخ» .

الشاعر وابناؤه

روي ان ابا تمام انشد احدهم قصيدةً له أحسن في جميعها الاّ في بيت واحد ليس كسائرها . فقال له : يا ابا تمام ! لو أسقطت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب .

فاجاب الشاعر قائلا : انا والله اعلم منه مثلما تعلم . ولكن مَثَل شعر الرجل عنده مثلُ اولاده ، فيهم القبيح والجميل ، والرشيد والساقط وكلهم حلوٌ في نفسه . فهو ان أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وان هوي بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر ...

ويشبه هذه الحكاية ما يروى عن احد كتاب الفرنسيس،وذلك انه بعد اذ نضج واكتمل فنه ، استمر على اجلال تآليفه الاولى والمبالغة في الاعجاب بها،ويقول الناقد الذي يروي هذه النادرة ان ذلك لم يكن من «رنه بازان» بعامل من الغرور الادبي بل بباعث من الحنان الابوي . « ولقد اخطأتُ ذات يوم وسألته : اي قصصك افضل عندك ؟ فاخذته الحدة واجاب بقوة قائلا :

« ــ الحقيقة هي ان كل كتبي ــ كلها ــ وُضعت واشترك

في وضعها قلبي ... خرجت من صميم نفسي فلا استطيع ان افضل بعضها على بعض . »

*

هذا المساء ، في احدى ساعات الملل التي يتساءل المرء فيها وقد هادنته الحياة : « تُرى ، ماذا يراد بنا في هذه الدنيا ، وهل لوجودنا غاية ؟ » يتساءل متبرماً بأمسه ويومه وغده ، دون ان يوفق الى جواب او شبه جواب على سؤاله ، بل السؤال الذي طرحته سآمته على الوجود وعلى الحياة ...

جلست الى منضدتي مضرباً عن الاعمال والجهود الباطلة ، ويداي تعبثان جادّتين في البحث عن لا شيء . وهكذا عثرت يمناي ، ويسراي لا تعلم ، بدفتر اسود صغير هو بعض ما بقي لي من عهد الصبى . اخذت في تقليب اوراقه الرثة الصفراء ، فانبعثت منها رائحة القدم والبلى كأنني دخلت غرفة أُحكم قفل ابوابها ونوافذها وهُجرت زمناً مديداً .

ودفتري هذا ، على ضآلة حجمه ، كالقدح الملآن لا تزيد على ما فيه قطرة الا طفح : ليس بين سطوره وهوامشه موضع لكلمة . فيه آراء وابيات شعر وخلاصات كتب ، بالعربية والفرنسية والانكليزية ، وبعض مفردات الاسبرانتو ... وفيه ايضاً خواطر لي وشروح وتعليقات ، ولا فخر ! فهي التي عقدت الآن لساني و كمت

في ، اذ هممت بان انادي ، على جاري العادة في مثل هذه الاحوال :

— سقياً لك يا عهد الصبى ورعيا !

من خواطري في ذلك العمر السعيد بجهله وغروره ، وايمانه وحماسته ، ما انقله الى القراء بين أهلّة كأني انسبه لآخر ... قال رحمه الله :

« عاطفة الشاعر في بدء حياته الشعرية :

« ترددت زمناً في نظم الشعر خشية ان لا يتسع له ما فيّ من خيال . ثم اقدمت . الاسباب : ما رأيته عند الغربيين وضيقُ نطاق ما طالعته في كتب العرب ، وعلى الاخص المعاصرين منهم . لقد رأيت هؤلاء غير جديرين بان اقول فيهم الكلمة التي قالها احد كتاب الفرنجة في بعض العصور الزاهرة: اذا لم اكن عظيماً فاني على الاقل معاصر للعظماء !

« هل هذا غرور ؟ ربما ...

« بعد ان كتبت ابياتاً معدودة من قصيدتي الاولى بقيت اياماً لا اجرؤ على الدنو منها بزيادة او تنقيح ، انظر اليها كما ينظر المحب الى حبيبته ، مع علمي بانها غير تامة وان فيها ما يجب بتره بحق وعدل .

« ما اشبه هذه العاطفة بعاطفة الاب والام امام « طرفتها » في اسبوعه الاول ! يعلمان ان شد العصائب على اعصاب الطفل الرطبة

مما يقويها ، ولكنها يخافان ان يؤلماه ويسمعا بكاءه ... بيد انهما بالرغم من ذلك سيقدمان بعد الاحجام ...

« واني لمقدم ايضاً على شد اعصاب طفلي (القصيدة) !

في ٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٣ » .

*

هذا ما جاء في ذلك الدفتر الصغير ذي الاوراق الصفراء كاوراق الخريف . وهو لفتىً كان ، فيما مر من اعوام ، لا يعرف السآمة المتسائلة : « ماذا يراد بنا في هذه الدنيا ؟ » يؤمن باشياء كثيرة ، منها انه سوف « يجدّد » الشعر العربي ، لم يكد ينظم شعراً . لقد جنتْ عليه اليوم ، فبعثته من مرقده ، المقابلة بين ابي تمام الشاعر العربي وقرنه بازان الكاتب الفرنسي اللذين اتفقا على بعد الشقة بين عصريهما ، واجمعا على القول بان القصائد عند ناظمها ، والكتب عند مؤلفها ، هي كالابناء عند الوالد الحنون ... ليس الامر بذي بال ، وهو لن « يكسر » بيتي الشاعر الانكليزي كبلنغ القائل :

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقي الاثنان ! »

لكن نبشنا قبر ذلك الفتى المسكين الذي كتب فيما بعد — وربما بعد ايام معدودة — على هامش خاطرته هذه العبارة ، قال رحمه الله : ومن هنا قول العرب عن الشاعر المبتكر « هو حسنُ التوليد » ومنه ايضاً تسميتهم المعاني « بنات الفكر » ، ثم ختم بسذاجة تفوق حد

الوصف قائلا : ما اعظم فرحي بوقوعي على هذه المقارنة الجميلة ! »

*

سقياً لك يا عهد الصبى ودعيا ! لقد كنت تسكر بزبيبة...

١٩٢٦

الباب المرصود

شهدت ليلة امس في احـد سينماوات البلد فلماً يقص علينا القصة الابدية : نفسان فاضلتان ـــ رجل وامرأة، تُجزيان في الختام، بعد عذاب شديد ونصب طويل، بالهناء المقيم والراحة الشاملة . وكان الفلم مؤثراً ـــ لو لم أجد فعله في نفسي لوجدت برهان ذلك في الدموع التي ذرفها، ذات اليمين وذات الشمال، فتى من بني قومنا وعجوز من نساء الافرنج . لست ازعم اني كنت كالجزيرة بين الفرات ودجلة حتى خشيت الطوفان . ولكني أشهد ان صاحبي الفتى وجارتي العجوز بكيا . ولقد خيل إلي ان الاقدار ساقتني نحو محرومين من نعم الحياة، فهممت ان آخذ بيده اليسرى ويدها اليمنى فاعقد بينهما، لولا ان منعتني كراهتي الدخول فيما لا يعنيني وحسناً فعلت !

اما الفتى فما أوشكت القصة السينماوية ان تنتهي ويرجع النور الى القاعة حتى رأيته يبادر الى مسح عينيه كالمستحي من ضعف نفسه، الخائف من سخر الناس الذين سيعلمون انه « صدّق » ووقع في

حبائل ... الفن . واما العجوز فاني رأيت في اعلى خديها زهرتين ذابلتين تلمع فيها قطرتان من ذلك الندى الحي ، وكانت اكثر تمهلا في كفكفة عبرتها ، كأنما تود لو يستمر هذا السحر قليلا ، او ترجو ان لا تستيقظ من ذلك الحلم .

*

هكذا الفن ، سواء الموسيقى والشعر وغيرها ، يخرج المرء عن طوره الى طور ثانٍ وينقله من عالمه الى عالم آخر . ولعلّ في البشر الى هذا الانتقال حاجة طبيعية تلح عليهم حيناً بعد حين ، فهم يكفونها بمختلف الوسائل التي استنبطت من اقدم الازمنة . وهل الاديان التي تحمل الانفس من هذه الدنيا المنظورة الى تلك الآخرة المغيبة بما فيها من جنة ونار ، الا المظهر الاسمى لتوق النفوس وشوقها وحنينها الى صور غير المرئيات ، وحياة كما يقول اناتول فرانس «تُصلح فيها مساوىء هذه الحياة ويُكفر عن ذنوبها؟» هل الاديان الا وسيلة الى كفاية تلك الحاجة الطبيعية الدائمة في هذه الانفس الساخطة المتبرمة ؟ ولا عجب . فالبداهة هي ان البشر ينشدون السعادة العظمى ، وانهم لا يوفقون اليها في الواقع الذي يعرفونه ويحسون نقصه وعدم مواتاته ، وقد حسبوا انهم يحظون بها — اين ؟ في غيبوبة عن هذا الواقع ونسيان له وخروج منه .

ان البشر في حياتهم هذه لكرفاق سفرٍ استيقظوا بغتة على غير

موعد ، في حجرة حبيسة الهواء خابية النور ، تتجاوب في نواحيها الاصداء المنكرة وتتطاير الاشباح المخوفة : هذا يبيع وذاك يشتري ، هذا يتزوج وذاك يطلق ، هذا يلعن وذاك يستغفر ، هذا يولول وذاك يغني ... فهب كل واحد من هؤلاء المغضوب عليهم ، ضيق الصدر طائر البصر ، الى كوة من كوى الحجرة يفتحها ، ليطل منها على عالم مسحور تسبح فيه الملائكة وتلمع الدراري وترقص الجنيات الحسان — في مروج من سندس ، تحت سماء من لازورد ، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة .

ولذلك رأينا بعضهم يدمن الخمر مؤمناً بباخوس او يشم الكوكايين واجداً فيه ريح الجنة ، ورأينا البعض الآخر يقبل على الحشيش ، او الافيون الذي زعم الكاتب الانكليزي « دو كوينسي » في دعائه المشهور الى هذا الرب المعبود ، انه قادر على ان يشيد ، بابرع صنعة من فيدياس وابلغ فناً من براكسيتيل ، مدناً ومعابد تفوق بابل وارم ذات العماد ، عظمة وسناء: « انت وحدك تهب الانسان هذه الكنوز ، وبيدك وحدك مفاتيح الجنان ، ايها الافيون العادل القدير ذو السلطان ! » وكل هؤلاء يسلكون في مشارق الارض ومغاربها سبلا مختلفة الى غاية واحدة : السكر ، او الغيبوبة التي تُنسى فيها هموم الحياة اليومية . وليست تلك السموم القاتلة الا مفازات يقطعونها الى عالم الغيب والغفلة والطمأنينة ، او كوى يفتحونها في

الحجرة الحبيسة الهواء ، الخابية النور ، التي تتناكر فيها الاصوات وتتزاحم الاخيلة .

والحب متى يبلغ اشده ويصل الى ذروته — ألم يقل العارفون انه يكون حينئذ كنشوة السكارى يغيب بها المرء عن نفسه ،ويغفل عما حوله ، وينسى حاضره وآتيه ، حتى ليحسب انه يضم الى صدره حبيبه ، حبيبه بعينه ، وهو لا يضم ، لو يعلم ، الا صورة يتخيلها او مثالا يتمثله ، في برزخ بين الموت والحياة ، بل حيث لا موت ولا حياة ! هو الفقير فاذا به الغني ، وهو المنكود فاذا به المجدود ، وهو في الارض فاذا به في السماء .

*

سئمت نفس « بودلير » الشاعر الفرنسي فطفق ينقلها من قطر الى قطر ، وهو يمنيها بالنعيم والطمأنينة وهي لا تزداد الا قلقاً وملالة ولهفة الى الرحيل . وكان لا يفتأ يسألها في احدى قصائده المنثورة : « الى اين تريدين يا نفسي ؟ » فلما فرغت حيلته ونفد صبرها اجابت قائلة : « حيثما كان ، ولكن في خارج هذه الدنيا ! » ولبودلير قصيدة هي آية في الابداع عنوانها « الرحيل » قص فيها قصة تلك النفس الظامئة ابداً ، ووصف جهوده للفرار من ذاته . لقد عاذ الشاعر بالفن والجمال والطيوب والموسيقى ، لانها على حد قوله « لقلوب ابناء آدم افيون الهي » ، ولكن لم يجده عياذه بها جميعاً . فلجأ الى

الحب والدين ثم جرب كل الوسائل التي اهتدى اليها البشر لتنويع اللذة وارواء النفس ، فاذا بالسعادة في مراحل هذه الهجرة الكبرى رغم بهجة الطريق ، سراب خادع لا يتلاشى في افق الا ليظهر في افق أبعد فابعد. واخيراً عرف « الافيون العظيم » — وله كتاب في وصف الجنات ، لا جنات عدن ، بل «جناته المصطنعة» فقال لنفسه : اذا كان النعيم في الموت ، في الموت وحده ، فليكن المرحلة الاخيرة يا نفسي ! وهنا يلتقي بودلير وافيونه بالبوذيين و « نرفانا » هم ، لتتم كروية الارض... وان قوافل البشرية المتنقلة من ازل الآزال الى ابد الآباد ، في سبلها المختلفة ، لتقف جميعاً عند غاية واحدة مزدحمة على عتبة الباب المرصود ، حاسبة ان السعادة الكبرى والطمأنينة العظمى خلف الباب ، متسائلة في حيرة ولهفة :

— ولكن من ، ترى ، يفك الرصد ؟

*

ما اكثر ما رأيتني كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بغتة أمني نفسي بالنعيم لاني ممسك الى صدري كتاباً ، اسرع في خطاي كأني وحبيبتي على موعد لقاء !

١٩٢٦

كنوز الفقراء

بقرة ، وليست كالبقر ضخامة جسم ، بل هي اقرب الى العجل الصغير . تلمع عيناها في الليل البهيم كأنهما جمرتان او نجمتان . مسرجة بالذهب ، نعالها وخلاخلها من ذهب . وعلى ظهرها عدلان ملئا بالدر والياقوت والحجارة الكريمة . تجيئك في ساعة متأخرة من الليل فتناديك قائلة :

ــ تعال يا فلان وخذ نصيبك !

فلا تخف ولا توقظ احداً من اهلك النيام . تقدم نحوها وابط الجأش وانزع نعالها وخلاخلها وسرجها ، وافرغ العدلين من كنوزهما ، ثم املأهما بما تيسر ، والافضل ان تجعل في احدهما خبزاً وفي الآخر ملحاً : علامة المودة والشكران . فهي تمضي في سبيلها تاركة في دارك الذهب والدر والياقوت والحجارة الكريمة . طوبى لك فانت الغني السعيد !

... وفي النصف الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة زارت البقرة « حاملة النصيب » جدة والدي السيدة صفية وكانت رحمها

الله ،«سبعينية» . فسمعت طقطقة النعال ورنين الخلاخل على درجات السلم ، فنظرت من ثقب الباب الموصد عليها في حجرتها ، فرأت البقرة المذهبة تخطر في باحة الدار ، وعيناها تضيئان كأنهما جمرتان او نجمتان ، وهي تنادي بصوت اشبه بالخوار :

ــ تعالي يا صفية وخذي نصيبك !

اما المرحومة فجمدت في مكانها معقودة اللسان . واما البقرة فقد نادتها ثلاثاً ثم انصرفت كالمستكبرة ، انفة من هذا الجبن الشديد الذي ما عليه مزيد ! ولكنها انتقمت منا بان تركت على احدى درجات السلم نعلا من نعالها الذهب، دليلا على الثروة التي لم تمتد يد لاخذها ، وباعثاً على الحسرة الدائمة . ويُروى ان جدتنا قالت اذ انطلق لسانها هذه الكلمة المأثورة : « الشحادة ، ولا السعادة ! » وهكذا كنا ولم نزل فقراء ، عزاؤنا الوحيد ، بل عزائي انا وحدي هو اني كدت في النصف الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة اكون ، في ظهر الغيب ، غنياً ، فاذا لم اكنه فذلك لان جدتي السيدة صفية، عليها رحمة الله ، ما ارادت...

بهذا وامثاله كنا نتسامر في احدى ليالي الشتاء ونحن ، كباراً وصغاراً ، جلوس حول الكانون صديق المؤنس المحيي الامين . وبغتة شهدت في هذه الغرفة الصغيرة ، كيف تخلق دنيا غير دنيانا يقطنها اقوام غير اقوامنا ، دنيا عجيبة ملأى بالارواح الحيرة

والشريرة ، تفيض منها على دنيانا الاعاجيب ، وفيها يجد العامة تأويل كل الاسرار . واحسست كأن هذا الجو الذي كنت احسبه مهجوراً هو على الضد من ذلك مأهول لا تكاد تجد فيه ، من شدة الزحام ، شبراً واحداً لم يحله جنيّ او عفريت .

وليس اعجب ولا ابلغ دلالة من الصلة التي جعلها العامة بين عالمنا وذلك العالم . أأقص عليك قصة « الداية » التي دُعيت ليلا الى امرأة في الوضع ، فاعترضت سبيلها سيدة محجبة سألتها ان تشعل لها شمعتها المطفأة ، فلما تناولت الشمعة من يدها اختفت السيدة بين الارض والسماء ، ونظرت الداية فاذا الشمعة « اصبع مخضوبة بالحناء » ؟

أم اقص عليك قصة الرجل الصالح الذي التقى ذات ليلة بالجنية العروس ، المحلاة بالذهب من قمة رأسها الى قدميها ، فقالت له : عرّني من ثيابي وهي لك ! فلما ذكر انه ينبغي ان يخلع عنها كل ثيابها وينظر اليها وهي عارية ، حوّل بصره لانه لم يكن امرأ سوء ، وقال لها : استتري يا اختي ... استتري ! ثم انصرف ، لم يغنم ولم يأثم ؟

ام ماذا اقص عليك ؟ لقد انتقلنا من اسطورة عجيبة الى اسطورة اعجب ، ومن اقصوصة جميلة الى اقصوصة اجمل ، حتى خيل إلي ان ليلتنا هذه ليلة « شاردة » من طرفة الشرق الكبرى ، اعني كتاب الف ليلة وليلة ... واخذت افكر فيما فكرت فيه من قبل اذ كتبت « الباب المرصود » .

ليس خلق عالم على هامش عالمنا هذا ، او تصور وجود غير هذا الوجود العادي، وقفاً على وحي الانبياء وخيال الشعراء . فان للعامة في هـذا الخلق والابداع اليد الطولى ، بل لعل الانبيـاء والشعراء يستقون من هذه الينابيع التي لا تفتـأ تفيض في كل عصر ومصر ، ولا يغيض ماؤهـا ابداً : الآداب العامية . فاذا كان في الامر بعض الشك فان الشعوب ، بالاقل ، تلتقي مع انبيائها وشعرائها في صعيـد واحـد لكفاية الحـاجة الانسانية العـامة الدائمة الى الخوارق والاعاجيب ، اي الى كل ما هو « في خارج » هـذا العالم ونواميسه المعروفة وحقـائقه المألوفة . وان في الاداب العامية او « الفلكلور » كما يسميهـا الافرنج لطرائف شائقة ممتعة غزيرة المعـاني ، سواء الاقاصيص والامثال ام الاساطير والعقائد ، توفر على العناية بهـا ، جمعـاً وترتيباً وتأويلا ، كثير من اختصاصيي الغرب ، اعتقاداً انهـا فنون غير الفنانين و آداب غير المتأدبين ودواوين غـير الشعراء ، لا يتجلى فيهـا الروح القومي فحسب ، بل تترجم من جهة ثانيـة عن النفس الانسانية على اطلاقها . فهي كالبقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء .

... وأسرّت الي اكبرهن سناً قولها :

ــ هل تعلم لماذا اورثت فلانة بنيها (وذكرت اسرة معروفة في البـلد) سوقاً برمتها هي السوق الفلانية ؟ ذلك لان البقرة زارتهـا

فاخذت منها نصيبها ... والا فمن اين لهم هذه الثروة الطائلة ؟

وقالت اصغرهن سناً وفي عينيها الخوف والرجاء :

ـــ اذا جاءتني البقرة ، هذه الليلة ، ونادتني : يا سلوى ، قومي وخذي نصيبك ! فساقول لها من تحت اللحاف : يا بقرة انا اخاف لاني صغيرة ، فضعي نصيبي على عتبة الباب ، ارجوك !

ولكن ام سلوى ضمت صغيرتها وعوذتها قائلة :

ـــ بسم الله الرحمن الرحيم !

١٩٢٦

حنين شاعر الشعب

١

مقدمة مرسلة

صديقي حنين

لا احييك وانا كل يوم احييك ... وبعد فما إخالك نسيت كلمة من « رنان » قرأناها منذ ايام في كتاب مختاراته : « الادب الحق في زمن ما ، هو الذي يصور ذلك الزمن ويعرب عنه » . كلمة جامعة من فصل قيم في حقيقة الادب وعلاقته بالعصر — في الاصول التي منها يستمد ميزات الجمال والتأثير والبقاء .

وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها واغراضها ، لن تضيرها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية ، بل انها في هذا الثوب المنوع الالوان البهيج الزي ، لأحسنُ استيفاء لشروط البلاغة في المعنى والفصاحة في التركيب ، من بدائع كثيرين من ادباء العصر الذين يحيون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة ، فقصاراهم اذن ان

ينطرح « ادبهم » جثة على هامش الادب الحق الذي لا يصدر،سواء كان فصيحاً ام عامياً ، الا عن مورد واحد .

اما الجثة فيبالغون في تنميقها وتزويقها وتأنيقها ، لكنه «توااليت» الميت الذي لن يخدع طويلا . لن يخدع في صفوفنا هذه الفئة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسْخ الاقدمين واعسر من تقليدهم ، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة .

*

هذه الجنة الخراب ــ وطننا ، بما يسمع في جوه وفي بحره ، على اطواده وانجاده ، ببواديه وحواضره ، وحول غدرانه الراكدة وسيوله الراكضة ، من همس وقصف ، وتهليل وعويل ، وحفيف وعزيف ، وصيحات واصداء .

وهذه العروس النائحة ــ حياتنا ، بما فيها من مسرات تعقب حلاوتها مرارة الاحزان ، ومن آمال خائبة لا ترضى استسلاما للقنوط ، ومن المخازي المتلبسة بالشرف ، والشرف الاشبه بالعار ، ومن سيوف مفلولة بأيدٍ مغلولة .

وهذه الغانية المهجورة لانها لا تعرف الدلال ــ عاميتنا ، بنكاتها الطريفة وحكمتها الحصيفة ، بحقائقها الجارحة واساطيرها الساذجة ، وبمولدها ومحدثها من اوضاع ومفردات دقيقة الدلالة ، وتراكيب واساليب طلية مأنوسة .

وهذه الشجرة الشرقية الغربية ـــ ثقافتنا ، بما تحمل من هدي الى حسن الاختيار ، ومن حث على فضل الانتقاد ، ومن توفيق الى ثواب الاصلاح ...

*

تلك جميعاً ايها الصديق، هي الينابيع التي تفجرت باغانيك الجميلة وضعاً ، الرقيقة لحناً ، الرفيعة مقصداً . مستقر الحقيقة وملعب الخيال، ملقى الطبع الصادق والصنعة الجيدة . وهل أدلّ على ذلك من اعجاب العامة والخاصة بها على السواء ، وطربهم لها في كل ظرف وبكل ناد ؟

لو كنت ايها الصديق ، في ديار الغرب لكان الكلام في رسالتي هذه على نوع من انواع الادب والموسيقى له شأنه ... ولكن على هذا النوع فحسب . بيد اننا لحسن حظك وسوء طالعنا ، في بلاد أكثر من فيها المتأدبون واقل ما فيها الادب الحق . لذلك عددت نفسي سعيداً بتقديم هذا النموذج العالي لا للاغاني الشعبية ، بل للادب على الاطلاق . فقد جئت لتذكرنا بانه ينبغي ان تكون الصلة بين الادب والحياة غير منقطعة حيناً من الاحيان ، وان يفتح مسيل بين الفصحى الجامدة باهلها والعامية التي تعين على تزيينها ، اسوة باللغات الحية . ولا احسب هؤلاء الذين يريدون سد هذا المسيل بايديهم الا كاولئك الذين ارادوا حجب الشمس باكفهم حجبوها

عن اعينهم وظلت تضيء . ليسوا اقوى من الزمان ، وطبيعة العمران .

هذا ، والله يحفظك لاخيك ...

[مقدمة لاغنية باللهجة العامية نظمها عمر الزعني بعنوان : صندوق العجايب .]

١٩٢٤

٢

حنين والشعر القومي

حنين — رجل الوقت ، لم يؤت احد في الاعوام الاخيرة مثل شهرته الواسعة في عالم الادب ، وفي غيره ايضاً . ذلك انها لم تقتصر على العامة الذين ينظم بلهجتهم الحية ويحدثهم عن أعلق الاشياء بنفوسهم وأمسها بحياتهم ، فقد عرفه الخاصة ، بل ربما كان هؤلاء اسبق الى معرفة القيمة الفنية الجليلة في اغانيه الجميلة. كان في احدى قرى الجبل ، صيف عام ١٩٢٥ ، ينشد نفراً من اخوانه . فسمعه « الريحاني » لاول مرة ، فمشى اليه قائلا: «يارجل ! ألست الزعني؟» قال : « بلى . » فقال له : « ما انت بمغنٍ : انت مربٍ . »

*

يحتاج كل عصر الى من يشهد له او عليه ، واغاني حنين هي الشهادات الصادقة على زمن لا يؤدي ادبه الزور هذه الخدمة الواجبة. هي شهادات على العصر وعلى اهله تكشف عن عوراتها ومساوئها حتى ليمكن القول ان حنيناً هو دائماً من «شهود الاتهام» . ولكن الاصح ان يقال انه اعظم الهجّائين بين شعرائنا ، لانه استحدث نوعا من الشعر الهجائي هو الهجاء الاجتماعي .

واذا كان حنين مربياً فليس كسائر المربين ، او هو مرب يتوسل الى مطالبه بوسيلة عجيبة : السخرية ، ونعمَ الوسيلة هي ! في مقدورك ان تقول ما تشاء لايٍ كان ، فتذمه اقذع ذم وتشتمه اقبح شتم ، ولكن على شريطة ان تضحكه ، فانك اذا أضحكته جردته من سلاحه . ألم تغالب ذات يوم من هو اضعف منك — ولدك الصغير مثلا — فغلبك لانك تضحك وهو يجد ؟ كذلك الامر في المعنويات . فاذن لا عجب لحنين يستغل فينا هذا الضعف الانساني ، فيغلبنا ونحن نضحك وهو يجد . بل لو لم يكن الا الضحك لكفاه فضلا : إنا لفي عصر نظلم الذين ينعمون علينا بالضحك اذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور وأمثاله من المحسنين .

*

لحنين كرامات في حياته وما هو من الاولياء ، فان كرامات هؤلاء لا « تظهر » في الاغلب الا بعد وفاتهم . لقد سمعت احدهم — لا احد الاولياء بل « احدهم » — يقول لصاحبه امس وهما يتحدثان عن الفرنك وصعوده بعد ذلك الهبوط السريع :

— يا ما ارتفعت وزارات وسقطت وزارات ، وعُملت مناورات ونظمت ميزانيات ، فذهب كل ذلك باطلا . ولكن ما كاد حنين يصرخ في اغنيته الجديدة من قلب مجروح ، قائلا: «حاسب يافرنك!» حتى وقف بمثل كن فيكون .

(يسمع الليل في الصبح منه ياليل ! فيصغي مستمهلا في فراره)

وقد « سمع » الفرنك منه ، على ما يظهر .

هذه كرامة . ولكن الاعجاز هو ، لا مراء ، في صنعة حنين. لست اعني صنعته الموسيقية ، فاني في الموسيقى من الذين يعلمون انهم لا يعلمون ، بل صنعته الشعرية . الى القاريء ترجمة قطعة للكاتب الفرنسي « بيار لويس » من ديوانه المشهور « اغاني بيليتيس » :

« لما رجع الي سترت وجهي بكلتا يدي . فقال لي : « لا تخافي ولا تحزني، فمن رأى قبلتنا ؟ » قلت له : « من رآنا ؟ الليل والقمر، والنجوم والسحر . لقد نظر القمر الى خياله في البحيرة ، فحكى للماء الذي تفيء عليه اغصان الحور ، وماء البحيرة حكى للمجذاف، والمجذاف حكى للمركب ، والمركب حكى للصياد . واحسرتاه ، واحسرتاه ! ليت الامر انتهى عند هذا الحد. ولكن الصياد حكى لامرأة ! حكى الصياد لامرأة فاذن سيعلم بذلك ابي وأمي واخواتي وكل البلد . »

من هذه الاغنية اقتبس حنين اغنيته « كلمة حكاها القمر... » المنشورة في هذا الجزء.وما إخال القاريء الا قائلا معي ان الاقتباس يفضل الاصل من كل الوجوه . ولكن احب ان ادس في المقابلة عنصراً آخر قد يكون في ذكره بعض الفائدة ، وهو هذه الاغنية الساذجة التي تضحك بها على ذقوننا ، اذ نحن في مهد الطفولة الحالمة،

امهاتنا اللواتي يردن ايهامنا انها قصة عجيبة ملأى بالحوادث والوقائع. اقرأ ايها القارىء، باللهجة العامية — وكأنك تقرأ شعراً موزوناً — هذه الآية من ديوان الطفولة :

« حدُّوته ما حدُّوته ! طلع الشيخ عالتوته. والتوته بدها فاسه. والفاسه عند الحداد . والحداد بدو بيضة . والبيضه بـ... الدجاجه. والدجاجه بدها قمحه . والقمحه بالعليّه . والعليه مسكره. والمفتاح مع ابو صلاح : راح ليجيب حملين تفاح . نقى المليحه المليحـه ، عطاني ياها . والمتخه المتخه ، ضربهـا بركبتو ، طلعت من لحيتك للحيتو ! » عفواً ايها القارىء ...

هـذه « احدوثة » قد يكون لها معنى يغيب عنا . ولا غرو فان من الاشياء ما يفهمه الصغار ولا يفهمه الكبار . ومن يعلم ما الاحلام التي كانت تلك « السخافات » تحمل على غاربها نفوسنا . ولكن ألم تر كيف ان حنيناً الذي ينظم اليوم « احدوثاته » للكبـار ، اختار هذا القالب الشعري العامي ليردعه اقتباسه من قصيدة غربية ؟ وهنا الاعجـاز في صنعته التي يسمو فيها ما شاء ، ويهذبهـا ما وجـد الى تهذيبها سبيلا، لكنه لا يترك «الارض» التي منها نشأتنا واليها معادنا، فاذا استمد عنصراً غريباً تمثله اولا ، ثم زفه الينـا وكأنه بضاعتنا ، وهكذا تحيا الاداب القومية في الامم .

١٩٢٦

٣

العمود الهادي

للكاتب الانكليزي « دِكنز » قصة عنوانها: « مارتن تشوزلويت » استهلها بهجوم للرذيلة التي كان يدعوها اذكياء الانكليز « رذيلتنا القوميـة » اعني : الرياء . وفي تلك القصة وصفُ رجل اسمه المستر بكسنيف ، لا يزال الى يومنا هذا مضرب المثل في الرياء الانساني عند الانكليز ، كما ان « ترتوف » لا يزال منذ مثّله « موليار » على المسرح الفرنسي رمز الرياء الديني عند الفرنسيس .

ان بكسنيف هذا « يعطيك من طرف اللسان حلاوة » ويخفي تحت جمله المنمقة المفعمة كرما وحناناً ، اقسى انواع الأثرة وافحش مظاهر البخل . ويقول دكنز ان في هـذا الرجل من « الحكم الفاضلة » اكثر مما يحتويه كتاب مدرسي في الاخلاق ، وان بعضهم يشبهه بالعمود الهادي الذي يرشد ابناء السبيل الى الجهة التي يجب ان يمشوا فيها ، لكنه لا يمشي قط في تلك الجهة ، لانه العمود !

ولقد كان في نية دكنز باديء بدأة ان يجعل في الصفحة الاولى من كتابه هذه العبارة الموجزة البسيطة : « المكان : بيتكم . الاشخاص : انتم . » . لكنه عدل اخيراً ، ولعله اصاب فيما فعل .

فان الانكليز قلما يرضون عن الذين يصارحونهم بالحقائق الموجعة المزرية ، او يصبرون على تسفيه رذائلهم ونقائصهم ، ولو على سبيل المزاح . كذلك فان القراء لم يتقبلوا تلك القصة قبولا حسناً ، ولم يتهافتوا على قراءتها تهافتهم المعتاد على تلقف مؤلفات د كنز السابقة. كان القصاص الانكليزي ينشر قصصه في اجزاء متتابعة ، وكان يبيع ٧٠ الف نسخة من كل جزء ، فلم يبع من «مارتن تشوزلويت» الا ٢٠ الفاً . وهكذا الزمت الامة البريطانية كاتبها المختار، الحد الذي لا ينبغي ان يتجاوزه ، فلزمه صاغراً .

*

ما اكثر الاعمدة الهوادي في مجتمعنا ! هي قائمة في كل طريق، بل في كل عطفة طريق . ولو كانت هذه الاعمدة تهدي حقاً ، لم تكن بين الامم اهدى منا سبيلا ، فان مجتمعنا غابة من الاعمدة البكسنيفية الترتوفية ، لا يدعك بكسنيف واحد الا ليسلمك الى ترتوف آخر ، حتى لو ان امرأ اراد ان يضل فعلا لما استطاع ! والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه .

قلت : ما اكثرها في مجتمعنا ! والآن اقول : ما اقلها في ادبنا! والاصح ان يقال انها غير موجودة البتة . غير موجودة ، لا هي ولا غيرها . فان ادبنا مشغول بما لا ادري عن تمثيل نواحي الحياة، وتصوير اخلاق الاحياء . ادب لفظي ، لا ادب حي .

ألبس عجيباً ان لا تجد في غير اغاني حنين العامية تمثيلا صحيحاً لنواحي حياتنا ، وتصويراً صادقا لاخلاقنا الاجتماعية ؟ في هذه الاغاني يجد العامة صوراً واضحة بارزة لآلامهم وآمالهم ومختلف احوالهم ، ونكاد لا نجد شيئاً من ذلك فيما عداها ، حتى لو ان مؤرخا بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد ادبنا على زماننا ، او بالتماس صورة لعصرنا في ادبنا ، لكان اكثر تعويله على ديوان شاعر الشعب حنين . لولا حنين لكان هذا العصر ابكم ، ليس فيه من يشهد له او عليه . هو اذن شاعر العصر ...

في اغاني حنين ، كما قلت في كلمة سبقت ، كثير من الهجو لكثير من الرذائل والنقائص التي يصح ان ندعوها «رذائلنا ونقائصنا القومية» . ولا ينكر ان هجوه ، على الاغلب ، مر شديد . فهو يرمي الناس باوجع القول وانفذ السهام ، والناس يضحكون ويتقبلون اغانيه احسن القبول . قد يغص بعض الضاحكين بضحكهم او تتجهم اساريرهم بابتسامة صفراوية ، ولكن اكثرهم يستسلمون لضحك حر طليق ، او تزدان وجوههم بابتسامة غير متكلفة ، وكأني بهم يقولون للسهام التي تتساقط عليهم : « حوالينا ولا علينا ! » ويومئون الى جيرانهم من طرف خفي غامزين ، عملا بالوصية المأثورة : « جارك قبل نفسك » في الضراء ، لا في السراء !

١٩٢٨

٤

حنين والهجو الاجتماعي

لقد استحدث حنين نوعا من الهجو هو الهجو الاجتماعي . كان شعراء العرب يهجون اشخاصاً بعينهم لمآرب وحزازات خاصة ، ولا يهمهم أكانوا في اقوالهم تلك صادقين ام كاذبين . فجاء حنين وتناول بهجوه رذائل الناس ومساوئهم يصورها لنا ويضحكنا منها ، ولا يهمه الا ان يكون في وصفه صادقاً على الجملة . ليس الذنب ذنبه اذا قام يطلب مادة لفنه الشعري فوقعت يده على هذه القروح المصدأة ، وليس الذنب ذنبه اذا كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فمثلها لنا بصورة لطيفة بل « ملطفة » . من قال ان الفن رداء يجب ان يُطرح على سوأة نوح في غفلته ، ومن قال ان الفن طبيب جاهل دجال يخدع العليل عن علته ؟

كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب،وما زالا ، اليدين القويتين الاثيمتين اللتين تأخذان بعنق الفن فتخنقانه خنقاً .

كان الرياء الاجتماعي والحياء الكاذب،وما زالا، السدين المنيعين المخوفين اللذين يمنعان « الفساد » ان يناله « الاصلاح » بسوء .

فسواء علينا أنظرنا في المسألة من جهة الفن وحريته ، ام من

جهة الاصلاح وضرورته ، وسواء علينا أأخذنا برأي ابي الفرج قدامة بن جعفر اذ يقول في رسالته «نقد الشعر» :

« ان المعاني كلها معرضة للشاعر ، وله ان يتكلم منها فيما أحب وآثر ... وعلى الشاعر اذا شرع في اي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة ، والبذخ والقناعة ، وغير ذلك من المعاني الحميدة او الذميمة ، ان يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك الى الغاية المطلوبة ... »

أم ذكرنا ضحكة فولتير الهازئة الموجعة ، الصالحة المصلحة، التي كادوا يؤرخون بها العصر الجديد او يرمزون عنه بها ، فلا بد لنا في كلتا الحالين من ان نحمد الى حنين هذه النزعة المباركة في اغانيه العامية . هو اولا الشاعر المجيد فناً ، وهو اخيراً المصلح المحسن اخلاقياً واجتماعيا .

ان وراء هذه الاغنية « الخفيفة » التي لا تكاد تملأ صفحة من كتاب ، قصة بتمامها — فاجعة بفصولها ، ولا بأس ان نسميها : « القرنان » (وهو امة الرجل المشارَك في قرينته) . تلك ناحية من نواحي الحياة لا يجرأ الادب في بلادنا على دخولها ، كأني به يخاف ان يُتهم « بسوء الادب » . تُرى ! أهذه الاجمة التي تأوي الى ادغالها الرذائل والمفاسد والمساويء والخيانات بانواعها « حرَمٌ » من دخله فهو آمن ؟

٤٨

تريدون ادبا صحيحاً ؟ اذن فلندع الحيـاء الكاذب . وتريدون اصلاحا اخلاقياً ؟ اذاً فلندع الرياء الاجتماعي .

١٩٢٨

الاحلام

١

للاحلام في الحياة شأن كبير ، او هي على الاقل نصف الحياة . والاحلام عالم على حدته ، تصح المقايسة بينه وبين عالم اليقظة او الواقع ، من حيث الاتساع وترامي الاطراف ومن حيث الغنى بالحوادث والصور ، بل ان عالم الرؤيا لأعظم سعة من عالم اليقظة واكثر ثراء . ومن قديم الزمان اخذ العلماء وغير العلماء ، وما زالوا ، يضربون في مجاهل هذا العالم ، كما يستكشف الرحالون دنياً جديدة .

واذا صحت المقايسة بين عالمي اليقظة والحلم من وجوه عدة ، فليست تصح المعارضة بينهما تماماً كما يعارض الشيء بنقيضه ، ولا يمكن الفصل بينها الا بمثل ما يفصل الاوقيانوس الدنيا القديمة عن الدنيا الجديدة اللتين تصل بينهما السفن الماخرة في عبابه ، والانباء الطائرة في جوه . وفي هذا المعنى ، معنى المقاربة او المماثلة بين اليقظة

والحلم ، يقول الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » :

« أما تراك تعتقد في النوم اموراً ، وتتخيـل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً ولا تشك في تلك الحالة فيها ؟ ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل .. كذلك يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، فتكون يقظتك نوماً بالاضافـة اليها . فاذا اوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . »

وقد تبع العالم الفيلسوف « ديكارت » الفرنسي ، حجة الاسلام الغزالي في رأيه هذا ، فقال ما ترجمته :

« اذا اعتبرنا ان كل هذه الافكار التي تقوم في اذهاننا اذ نحن في اليقظـة ، قد تخطر لنا ايضاً ونحن في سنة النوم ، دون ان تكون هذه او تلك على السواء صحيحة ، فينبغي اذن ان اضمر كون جميع الاشياء التي في ذهني ليست اصح من تخيلات احـلامي . » وبعد ان يذكر ديكارت انه كان اذا نام ، يتخيل في احلامه نفس الاشياء التي فكر فيها وهو يقظان ، يستنتج هذا الاستنتاج الاخير : « اتضح لي ان لا أمارات يقينية يستطاع بها التمييز بين اليقظة والنوم ، او بين الحقيقة والحلم ، بوضوح وجلاء . » (١

١) راجع كتاب (آراء غربيـة في مسائل شرقية) ترجمة المؤلف .

وليس الحلم، كما يتبادر للذهن وهلةً اولى، قاصراً على المنام وهو الحال المعروفة بشروطها الخاصة، بل إن من الاحلام ما يُدعى باحلام اليقظة، كما ان من الناس مَن يُدعون بالحالمين ايقاظاً وهم الذين يفكرون ويتخيلون في يقظتهم كما يفكر ويتخيل الحالم المقصود بالذات ويكادون «يرون فيما يرى النائم ..» وما من امرئ الا مرت وتمر عليه احيانٌ يتملكه فيها شيء من الذهول، فيغيب عن العالم المادي الظاهر، فبينما هو مع اخوانه يتحدثون اذا به قد «تركهم» بغتة بقوى نفسه جميعاً، و «راح» مع أحلامه، فيشعر جليسه بانه انتقل الى عالم آخر، عالم الرؤى والاحلام، فيلتفت نحوه ويقول هازاً ذراعه كمن يوقظ نائماً، باسماً له كالمعاتب على انه فارق اخوانه دون استئذان او وداع :

اين انت يا ؟ . اين صرت ؟

فهو حينئذ لا يجيب قط بانه هنا، حيث تراه، بل يبتسم كالمعتذر عن ذنب فرط منه، وإن يكن في اقصى ضميره آسفاً، ناقماً على هذا الثقيل الذي قطع عليه «حلمه الجميل».

وهؤلاء الحالمون الايقاظ على درجات متفاوتة، اولها درجة «رجال العمل» الذين يستغرق الجهاد حياتهم او يملؤها، ما خلا سويعات قصيرة نادرة تضيع في الحالة النفسية التي اتينا على وصفها، فيكون من ذلك ملهاة لهم وترويح لنفوسهم . وآخرها درجةُ

« رجال الحلم » الذين تستغرق تلك الحالة حياتهم اليقظى كلها او تملأ جميع شعابها ، حتى يصبحوا عاجزين عن القيام بأي عمل مطرد ، لانهم ، الا فيما نـدر ، غائبون عن العالم المادي المحسوس ، غرقى في بحر الرؤى والاحلام والخيالات والاوهام . وقد لا يجدون طمأنينة نفوسهم وسعادتها الا في ذلك العالم ، فاذا اضطروا للعود الى عالم المادة او الواقع بقوة من قواه القاهرة ، عادوا اليه مكرهين متبرمين يساورهم خوف وحيرة كأنهم فيه غرباء مساكين . ثم لا تلبث تلك القوة القاهرة ان تزول حتى يعوذوا بعالمهم الذي الفوه وعرفوا « جغرافيته » ووجدوا السعادة والطمأنينة في رياضه الغناء المسحورة .

يقول الشاعر العربي لحبيبته :

ان كان واديكِ ممنوعاً فوعدنا   وادي الكرى ، فلعلي فيه القاك

وكأيّ من رجل آذته الأقدار بالمنع والحرمان من رغائبه العزيزة ، وعجز عن تحقيق مثله الاعلى لبعد الشقة بينه وبين الواقع الذي كتب له ، لكنه لم يستطع ان يوطن نفسه على الرضى بهذه الحياة المريرة ، فانكمش وبنى من احلامه المذهبة قصراً يلوذ بفيئه من هجير الحياة اليومية ، فهو يقول لمثله الاعلى او للسعادة ، محبوبة كل انسان ، ما قاله ذلك الشاعر المتيم لحبيبته ، ضارباً لها موعداً في وادي الكرى والاحلام .

ومن « أهل الحلم » بل من أولهم وأولاهم بالذكر ، الشعراء الذين يهيمون في كل واد ، لا سيما في ذلك الوادي حيث تمرح الطيوف وتسرح الأخيلة . ومن هؤلاء الشعراء السيد شفيق المعلوف الذي نشر منذ ايام قصيدة عنوانها « الاحلام » .

٢

في مجلس ضم بعض اخوان الأدب ، تناول الحديث قصيدة السيد شفيق المعلوف او مجموعته الشعرية الصغيرة التي سماها « الاحلام » . فما اخذه عليه احدهم ، بل اكثر من واحد منهم ، هو ان فيها غموضاً وابهاماً وتشويشاً . واني لأذكر كلمة قيلت يومئذ في هذا المعنى :

« لا مراء في ان لدى هذا الشاعر الفتى شيئاً يريد ان يقوله ، لكنه لم يوفق هذه المرة توفيقاً حسناً ، او كل التوفيق . »

قلت : لا ارى هذا الرأي . انكم تنظرون في ذلك الشعر بعين العقل وتحللونه تحليلا منطقياً ، وتنسون انها «احلام» واحلام شاعر ، وليست ميزة الاحلام في انها عقلية منطقية ، كما لا يخفى . فأنا وإن لم اقرأ القصيدة بعد ، اردّ حكمكم هذا عليها ، اردّه اصلاً (او مبدئياً كما يقال) ليقيني ان الاحلام انما تمتاز عن الحقائق بكونها عارية من حلل المنطق ، منحرفةً عن جدد المعقول ، والاّ لم تكن احلاماً . اذا كنا نقيس عالم الرؤيا بمقاييس عالم الحقيقة فلن يصحّ لنا حساب قط ، واذا كنا نحدث عن الاحلام بلغة اليقظة فمن المتحتم ان لا نتفاهم ابداً . ولعمري لو ان هذا الشاعر قص

عليكم في « احلامه » كيف انه في ساعة من ساعات الشيطان (او سوء الهضم) قتل احد خلق الله الابرياء ، فهل كنتم ترون ايضاً أن من حق القضاء او من واجبه ان يدين الشاعر باقراره ، ويعاقب « القاتل » على ما جنته يداه ؟

يقول علماء النفس ان الرؤيا فوضى ذهنية تلهو فيها ملكات النفس وتلعب ، في نجوة من رقابة الملكة الناظمة ويعنون العقل . فالحوادث والصور تكون في الحلم مشتتة متبلبلة ، غير متسقة ولا متسلسلة ، بينما تكون في اليقظة منتظمة موجهة نحو غاية من الغايات ، متصلا بعضها ببعض على الصورة المعتادة المعقولة .

قد ترى، فيما يرى النائم ، انك سقطت من اعلى المأذنة على أم رأسك ، ولكن هذا لا يعوق الحلم عن ان يستمر ، فاذا انت — ولم تمت ولم تنزعج — مشغول بامر آخر . كذلك لا بأس عليك وعلى المنطق اذا رأيت فيما يري النائم ، النار تضطرم وسط الماء ، او غير ذلك من الخوارق التي تُعد في عالم الرؤيا اموراً بسيطة مألوفة غير خارقة . فهل من العدل والعقل في شيء أن نقيس الحلم بمقياس الحقيقة ، وان نطالب شاعر « الاحلام » بوضوح اكثر وانتظام اتم — هذا على فرض ان قصيدته تشتمل ، حقيقةً ، على « احلام » سواء مما يراه النائم أم مما يراه الحالم اليقظان ؟

ولا يحسب القاريء اني اردت تفكهته بانتحال الاعذار لشاعر

قد يكون في غنى عن الاعتذار ، او اني عقدت النية على الكتابة في موضوع الاحلام ، فانتهزت فرصة سانحة يضنّ الدهر بمثلها ، اذ استعرت عنوان تلك القصيدة لمقالاتي . كلا ، فأنا لم اغرق في بحر الاحلام بعيداً عن ساحل الادب والشعر ، بل لم اخرج عن دائرة رسمتها لنفسي قيد شعرة . وليس الذنب عليّ اذا كانت السبل تطول وتقصر ، وتستقيم وتلتوي ، فتؤدي جميعاً في النهاية الى تلك الدائرة — كما تؤدي الدروب في القرية ، كل الدروب الى الطاحون .

في فرنسة مذهب ادبي جديد يسمونه مذهب « ما فوق الحقيقة والواقع » surréalisme ويقول دعاة هذا المذهب ان النفس الانسانية خلال العصور التي توالت عليها ، قد اكتسبت كثيراً من العادات ، وتقيدت بكثير من التقاليد ، وخضعت لكثير من المواضعات ، حتى اصبحت وراثية فيها او تنزلت منها بمنزلة الوراثة . ويزعمون ان هذه حجب لا تمكن من رؤية الحقيقة الاصلية العليا التي ينبغي ان تتغذى بها الآداب والفنون ، والتي لا تبدو من طيّ الخفاء ألا اذا تملصت النفس من عادات تفكيرها واقيسة منطقها ، وانطلقت من قيود التقاليد الاخلاقية والمواضعات الاجتماعية ، الملازمة لها في اخراجها الآثار الفنية والادبية . ان العقل ملكة ناظمة تصل بين الاشياء بصلات مصطنعة توهم الحقيقة ايهاماً . وان العقل ملكة نقادة تتخير بين الاشياء ، فتقصي شطراً من الموجود او

تغفله ولعلّه هو الشطر الافضل.وان العقل رقيب على سائر ملكات النفس مسيطر عليها ، فهو يأسر الخيال مثلا ويكبح جماحه ، والاحسن ان يُترك الخيال المبدع يسرح ويمرح ، وحبله على غاربه .

والخيال المبدع ، كما يقول داعية هذا المذهب ، هو الذي يوفق الى الفرار مما تواطأ الناس على تسميته بالواقع الذي لا واقع سواه ، والحقيقة التي لا حقيقة غيرها ، الى واقع اخصب ارضاً وحقيقة اكثر ثراء — الى حيث لا يساوي اثنان واثنان اربعة !

لذلك كان دعاة « الحقيقة العليا » يجدّون في انتهاز الحالات التي تكون فيها رقابة العقل على سائر الملكات النفسية ضعيفة او لا أثر لها، كما يجدّ الصوفي في طلب حالات الوجد والكشف .

ولا مشاحة في ان الاحلام ، سواء احلام اليقظة ام احلام النوم، هي الحالة المثلى لهذا الفريق من الادباء والشعراء ، منها يستمدون فنهم وادبهم ، وشعرهم ونثرهم .

— اذن فالسيد شفيق المعلوف صاحب «الاحلام» هو من هؤلاء؟ أتحسب انه فكر في هذه الامور او خطرت له ببال ؟

— قد يكون ذلك وقد لا يكون . قلت لكم منذ تناول حديثنا قصيدته اني لم اقرأها بعد ... سوف نرى .

٣

كنت اقرأ قصيدة « الاحلام » فوقفت عند هـذا البيت الذي يقوله الشاعر معتذراً ، لا عن ذنب او خطيئة ، بل عن انه «يشرب» من عبراته ، ولعل اعتذاره عن ملوحتها :

وما الماء الا دموع تجمّع منذ الخليقة من مقلته ...

فقلت: اذن لا حرج على المرء ان يذهب الى النبع رأساً، فيكسر عطشه بزلال « العين » الاصلية !

وهذه مبالغة تذكرني قول احد الفلاسفة الاقدمين : « قد تقرصنا اذ نحن نيام ذبابة ، فنحلم باننا قد طُعنا بسيف هندواني . » ذلك ان النائم يكون عرضة لعوامل خارجية تؤثر في حواسه، فتعظم الرؤيا هذه الصغائر وتبالغ في تجسيمها . والمبالغة الى حد الخروج عن دائرة المعقول احدى صفات الاحلام .

ما انا بعاتب من السيد شفيق المعلوف تشاؤمه الذي خيل اليه «ان الماء دموع الانسان تجمعت منذ الخليقة » والا كنت مطالباً اياه بتبديل طبيعته ، حالماً انا ايضاً بان هذا المستحيل من الممكنات . بل اني لاؤثر كل متشائم سوداوي الرأي في الحياة على كل متفائل يرجي الخير منها ، وكثيراً ما احشر المتفائلين في زمرة الحمقى فأتمثلهم ،

بالرغم مني ، يضحكون جماعة ــ ضحك البلهاء . ثم كيف اجرؤ على لوم هذا الشاعر الفتى وهو يدّعي لامام المتشائمين، المعري القائل :

الى الله اشكو انني كل ليـلة
اذا نمت لم اعدم طوارق اوهامي:
فان كان شراً فهو لا بدّ واقـع
وان كان خيراً فهو اضغاث احلام!

لست ألومه ولكني ارثي له من نوع رثائي لنفسي . فان احلامه مأهولة بافاعي تنفث سمها في قلبه ، ولا تنقلب هـذه الافاعي ، ولو لحظة واحدة ، بفعل الرؤيا الساحرة القادرة على كل شيء ، ذراعي حبيبة ترشف ثغره رحيق النعيم . ولكن يلوح لي ان صاحبنا ينعم بيأسه ، نعيم غواة المخدرات بما يعلمون انه قاتلهم ، فيقول :

وما روّعتني رقطاء قمت اداعبها مدمناً لثمها !

اما هذه « العشيقة الرقطاء » فهي ... أحزرت ايها القارىء ما هي ؟ اني دالـك على الطريق : اذكر « قرص الذبابة وطعنة السيف الهندواني » . أحزرت الآن ؟ ــ نعم ، هو تربيج النرجيلة:

فتربيجها بين هذي الانامل رقطاء تنفث بي سمها ..

ولعمري هل في الوجود شيء تقدر الاحلام أن تقلبه بسحرهـا المبين حية تسعى ، كما كان يفعل موسى عليه السلام في عهد النبوآت ــ غير التربيج ؟ فان لم يكن ما تضمنته قصيدة السيد شفيق المعلوف

احلاماً فماذا تريد ان يسميها ، او كيف انكر عليه هذه التسمية وقد شهدت في شعره تلك الاستحالة المعجزة ، استحالة النربيج الى حية ؟ لا مراء في انها ، ان لم تكن احلاماً ، شبيهة بها كأنها هي ، والا فكل قياس باطل .

ستقول انه خيال الشاعر . فاجيبك : اجل ، وهو « الخيال المبدع » الذي عرضت له في الفصل السابق . وازيد اليوم انه لا يكون مبدعاً الابداع كله الا في حالات انطلاق النفس — ملكاتها — من اسر العقل الكسبي الذي لا يحيد قيد شعرة عن القاعدة القائلة: « اثنان واثنان تساوي اربعة » وامثالها من القواعد ، ولو ترك له الامر جميعاً لما رضي قط بان يخلط — مثلا — بين نربيج النرجيلة والحية الرقطاء . بيد ان الخيال ، لحسن الطالع ، يوفق في غفلة العقل عنه ، الى ابتداع اقيسة ومقاربات غير منطقية ، فكأنه يخلع ، حيناً بعد حين ، على هذا الوجود حلة جديدة . والحالة المثلى لابداع الخيال ، كما تقدم ، هو الحلم الذي كأنه العالم الآخر ، بجنته وناره..

في « احلام » السيد المعلوف ، ما عدا تلك الافعى ، زنبقة في جمجمة و كرة نار ونفخة صور وهلجرا . وفيها ايضاً قبور ... ان العامة لم يدعوا شيئاً الا قالوه . والمثل : « من نام بين القبور لم يأمن الاحلام المرعبة » مشهور . واحسب ان الشاعر اذ وصف تلك الرؤى بقوله « احلام مقلقة » يتواضع قليلا او يبالغ في التجلد ، والا

فهي ، على الحقيقة ، اكثر من «معلقة» .

*

الان والضرورات تقضي علي بختم هذا البحث في الاحلام — ولم اتناول الموضوع الا من بعض نواحيه ، بايجاز — فلا بد لي من اظهار ما خالط نفسي ، وانا اقرأ القصيدة ، من لذة ومن اعجاب بمواهب ناظمها المطبوع وصوره الرائعة . لقد فتح هذا الشاعر الفتى في الشعر العربي بابا ، فولجه بذهنية غريبة على روحه التاريخي التقليدي ، غريبة السمة والطابع . ولعل عنايته بمتانة السبك وجودة التعبير اللتين تخيلان ان تلك الذهنية ليست غريبة بهذا المقدار ، ان كانتا لا توهمان «القرابة» ايضاً ، اقول : لعل عنايته هذه خير شفيع له.

تعرفت الى السيد شفيق المعلوف منذ ايام وجلست واياه جلسة قصيرة اهداني فيها مجموعته الشعرية الصغيرة. فهذا ، وهو قليل جداً ، يحملني على ان آذن لنفسي باسدائه نصيحة يغلب على ظني انه في غنى عنها :

اما وانت يا شاعر «الاحلام» سوداوي المزاج ، يائس من الحياة الدنيا هذا اليأس الاسود ، فقل :

« اعوذ بفني ، ان في الفن عزاء وسلوى ! »

١٩٢٦

المرأة المجلوّة والمرآة الصدئة

١

في ذات يوم من ايام الصبى علمت ان الشاعر قد يغير على الشعراء المتقدمين فيأخذ ابكار معانيهم ومبانيهم « سبايا » بلا قتال . ولعل اول شعرة بيضاء نبتت في رأسي هي التي ارخت هذه المعرفة الرائعة ، فاني رأيت يومئذ في الحلم ، لص الدواوين يتسلل خفية في الليل بين الاضرحة الموحشة ، ثم يعود بغنيمته سرقة من امتعة الموتى ، ويا للهول ! لا اذكر من قال لي بعد ذلك : ان امر هذا الشاعر — الشاعر اصطلاحاً — هين جداً . يكفي ان تقول انه ليس بشاعر ، حقيقةً ! وما هذا بنقد ، بل هو حكم بالاعدام .

وما لبثت أن خبرت ذات يوم آخر ، خبر الاديب الذي لا يسرق قاصداً متعمداً ، ولكن لاذاتية له واضحة ، فليس يبرز من ذاتيته شيء في شعره او نثره ، وليس شعره او نثره اذن الا كالامواج التي لا تفور حتى تفور زبداً وتذهب جفاء .

وأجل شأناً من هذه الحوادث المفردة حادث الجيل الأدبي الذي يقتل التقليد والصنعة والبيانيات روح الصدق والبراعة والطبع فيه . فانه تأتي على آداب الاقوام ازمنة لا تخرج الا الزائف ، ويصح فيها القانون الاقتصادي القائل ان النقد الرديء يطرد النقد الجيد من السوق ، بل يلاشيه .

قرأت في كتيب قديم عن الادب الروسي ما خلاصته : تأثرت اوربة في عصر الانبعاث ، أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، بادبين عظيمين هما ادبا الاغريق واللاتين . فبعث النماذج والانماط الجليلة التي خلفها هذان الادبان ، شعوراً في النفوس بسلطان الشعر الحي والصناعة الدقيقة ، شعوراً قوياً هاج في الامم الغربية رغبة التوليد والابتكار . وكانت لهذه الاقوام شروط في المعيشة وآراء وعقائد خاصة ، ومثل عليا في الحياة تختلف عما كان للاغريق واللاتين في عصورهم . لذلك لم يكن نتاج الأمم التي ورثت كنوز اليونان والرومان تقليداً محضاً ، بل اصبحت لها آداب حية طريفة ذات معان ومناح خاصة .

وتأثرت روسية في القرن التاسع عشر بآداب اوربة الغربية ، وخاصة بأدبي الفرنسيس والانكليز . لكن شروط الحياة الروسية تختلف بالكلية عما في فرنسة وانكلترة من ذلك ، فلم تر مسحة التقليد على ثمار قرائح المؤلفين الروس ، بل انهم كانوا يلاحظون ويختبرون ،

ملاحظة خاصة واختباراً صادقاً مطبوعاً جعلا نتاجهم الأدبي مستقلا متميزاً قائما بذاته ، حتى قيل انه أثر "كرد" الفعل ، في ذات تلك الآداب التي بعثت فيه الحياة من قبل .

فرنسة وانكلترة قطران عريقان في المدنية التالدة . وبقدر عراقتها ابتعدا عن الفطرة الخالصة . ومن ثمار المدنية فيها تعدد الطبقات الاجتماعية وكثرة المصطلحات او المواضعات ، ولهذين العاملين اكبر الأثر في موقف الاديب وفي مناحي ادبه ، فهو منفعل الذهن بهما ، خاضع لسلطانهما ، لا يمكن ان يصدق الصدق كله وان يصدر شعره ونثره عن طبعه ، خاصة. هذا هو شأن الكاتب في فرنسة رغم اعتقاده ان الصدق والطبع من العناصر الجوهرية في الأدب الحي الخالد ، ورغم الحرية الواسعة التي ينعم بها الناس في دائرتي الاخلاق والعادات . فانه لا يصدق خيفة السخرية ، واكبر همه ان تستر الصنعة والكلفة ادبه . كذلك هو الكاتب الانكليزي الذي يراعي ،ما وجد الى ذلك سبيلا، جانب الاحكام المقررة في الاخلاق والعادات فلا يتعرض لها بسوء . اما الكاتب في روسية فهو يتحرى الصدق جهده ، وما يكتبه يتحدر عن طبعه ، وطبعه سليم لا يشوبه كدر المواضعات الاجتماعية او رياء الاخلاق السائدة والعادات المستحكمة . وهذه الخاصة — خاصة الصدق — في الأدب الروسي ناشئة عن كون طبقات الناس اقل في البيئة الروسية

منها في اوربة الغربية ، وعن ضعف اثر المواضعات فيها ، ثم عن حس اخلاقي صارم دقيق لا يحجم عن اظهار المساويء وعن كشف عورات الاجتماع . وليس ادل على هذا مما يذهب اليه تولستوي من ان السكوت عن رذيلة كتمان لها ونصح واغراء بها .

٢

ليس بهين ولا يسير وصف الأثر الذي تؤثره المواضعات الاجتماعية والاخلاقية في ادبنا الحديث . واترك الادب القديم جانباً، فليس في نيتي ان اعرض هنا للادب العربي في مجموعه ، لئلا تضيع هذه الخواطر الضئيلة في رحاب ذلك الافق العظيم . ولكن قبل الكلام عن المتعارفات الاجتماعية والمواضعات الاخلاقية التي تقوم حياتنا عليها والتي تفعل ، عن هذه السبيل ، فعلها في حياة ادبنا ، أحب ان امهد لذلك بكلمة وجيزة في ما اسميه المواضعات البيانية او « العرف والعادة » في الشعر نفسه .

من آثار هذا العرف الأدبي التغزل في مطلع القصيدة ثم التخلص الحسن او السيء ، الى المديح او الرثاء ، والغلو في توهم صلات « هوائية » بين حادثات طبيعية لا يد لاحد فيها وبين شؤون لا يضيق بها صدر الطبيعة ، لكنها قد تهم شاعراً او شويعراً ، وقد لا تهمه ، في الاحزان والمسرات ، وحيناً تصور كهذيان المحموم انه كان يجب ان تقع حادثات كونية جسيمة لا تقع عادة او يمتنع وقوعها فعلا ، مشاركة في حادث بسيط او مركب هو موضوع تلك القصيدة ، والشكوى من الزمان الخصيم ومن صروفه « المتعمدة »

في مواضع معينة من قصائد معينة ، الخ .

صورة الكمال في تاريخ الادب كما يفهمه اكثر رجاله صورة غابرة في الادب القديم . لذلك كانت خلائق ادباء العصر ، في الغالب على تلك الصورة . وما ادري أمن حسن حظ الادب ام من سوء طالعه ان يكون — او ان يُرى — افضله نتاج طفولته ، بمعنى انه اذا صح هذا الرأي كان الادب العربي في مجموعه كالهرم قاعدته ضخمة ، دق ودق حتى صار رأسه كالمسلة ، يضؤل ويضؤل حتى يضمحل ! وفي تاريخ ادبنا ، هذا العصري ويبدُ ذلك القديم ، ويكاد يكون هو ، لولا الفواعل الطبيعية التي لا حيلة للناس في دفعها . ألست ترى الشعراء يتزاحمون بالمناكب في الطريق الموطأة الرود التي يمشي فيها العميان بلا ادلة ولا عكاكيز؟ ما اكثر القولات المكررة والاكاذيب المقررة في ادب لا يفتأ يرجع ترجيع الطير الوحيدة النغم ، او يجتر اجترار الابل ذوات المعدتين !

اذا كنا في حجرة حبيسة الهواء لا ينفذ اليها النور ، او اذا كنا لا نعطي الا المتماثل من مصنوعات مصنع ادبي واحد ، فليس السبب ان سلطان الانماط والنماذج الاولى كبير ، ولا ان الشخصيات الادبية القادرة الواضحة تكاد لا توجد في ظهرانينا — ليس هذا ناتجاً عن هذين السببين فحسب ، فان ثمة عاملا جليل الاثر وليست تعدله العوامل الاخرى ، هو الاعتقاد بان في حياتنا مالا يصح نقله

بالصورة الفنية ، او اذا قُدر ونقل فلا يصح نقله على حقيقته. ولعل في ادبائنا من تحدثه نفسه بتصوير وقائع الحياة دون توشية او زخرف او « تمويه » ولكن لا جرأة له على ذلك ، وهنا يبدو سلطان المواضعات الاجتماعية والاخلاقية على الادب العصري ، فان ادبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرآة الصدئة العروس او المرآة المجلوة .

وعلى ذكر المرآة المجلوة وما تنقله من محاسنها صفحة المرآة الصدئة ، نضرب في هذا السياق مثلا : المرأة في ادبنا العصري وكيف ان الحلال والحرام ، وما يقال وما لا يقال ، هي وحدها هموم الاديب ، في الغرفة الحبيسة الهواء التي لا ينفذ اليها النور ، او في الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير ادلة او عكاكيز .

٣

قلت يوماً في سياق الكلام : « المرأة « محجوبة » عن ادبنا بقدر ما هي محجوبة عن حياتنا . وانا الآن اقر بخطأي واقول : كلا ، ليس من العدل ان يقاس حجاب المرأة في الحياة بحجابها في الادب. هو هنا اكثف منه هنالك ببضعة عشر سنتمتراً ، ان احسنت التقدير. فاذا كنت تحسب المرأة في دنيانا الشرقية الفانية « مرتين » ، ظلا خفيفاً لا تحسه يقظاتنا ، او خيالا فراراً لا تعيه احلامنا ، فهي في هذا الادب « المذكر » ظل الظل وخيال الخيال .

لا نزعم ان المرأة في مجتمعنا قد أحلت في المحل الارفع الذي يقول النساء كلهن والرجال بعضهن انها جديرة به ، فهي لا تزال بعيدة عنه جداً . واذا كنت لا تكاد تفقد المرأة في ديار الغرب طرفة عين ، او اذا كانت آثارها لا تغيب عنك ، حتى كأن المدنية بكل ما فيها من جليل فخم ومن دقيق لطيف لم توجد الا لها ، والا موسومة بطابعها ، فانك تكاد لا تلقاها او تعثر على آثارها هنا ، في « مدنيتنا » وفي كل .. ما فيها ايضاً من لطيف دقيق ومن فخم جليل. لكنك على كل ، واجد في حياتنا من ذلك شيئاً ، واجد بالاقل « الشيء الحيواني » . بل انا على يقين من انك قد تعثر بهامات من

اشياء منزهة عن تلك الحيوانية التي لا نذهب الى وجوب استئصالها من الطبيعة الانسانية ، وانما نجرؤ على القول ان في هذه الحياة الدنيا «غيرها» ايضاً .

فهذه الصلة الاولية بين الرجل والمرأة ، لا مراء ، موجودة في حياتنا ، ولسنا نجد لها في ادبنا أثراً . واذن فهذه المرآة الصدئة لا تنقل من محاسن المرأة المجلوة ولا المحجوبة قليلا او كثيراً . بل يخيل الي ان ادبنا هو من تلك المرائي الخبيثة الخداعة التي تمسخ الوجوه وتشوهها فتقصر وتطول ما شاءت من رقة وضخامة ، حتى لتتنكر الوجوه المسكينة صورها الكاذبة ، حانقة متسائلة في حيرتها ، قائلة : من الشيطان الذي لعب علينا هذه اللعبة ؟

وبعد ، فاية صورة من المرأة تتجلى على مرآة ادبنا ؟ يخطر ببالي الان ان اسأل احد الرسامة المجان الظرفاء تمثيل تلك الصورة التقليدية التي حفظها الشعر العربي ونقلها الينا « دون تصرف » كأنها أثمن الكنوز واغلاها : من « الوجه كالقمر » الى « القامة كغصن البان » ، المركز في « كثيب الرمل » ... ثم اطرح على الصدر المرمر ما شئت من « رمان النهود » او اثبت ما طاب لك من « حقاق العنبر » الخ ... ما انا بمنكر من الغزليين هذه التشابيه الجاهزة ، فما كان احسنها وابلغها — على ما نتصور — لاول عهد اللغة بها ! ولقد قال اول من قالها ، شيئاً جديداً أثر في نفوس السامعيه ابلغ الأثر .

كانت قوالب، وكان كل شاعر يأخذها على سبيل العارية، فيصب فيها استعارات وتشابيه اخذها بالدين ايضاً: هذه هي القصة من فاتحتها الى خاتمتها .

صورة المرأة في ادبنا ـــ مي ودعد وهند او (سعاد التي بانت..) كل هؤلاء او احداهن او لا احد . صورة غامضة مبهمة ضائعة . لا ذاتية ولا ميزة ولا شيء تعرفها به، او هو ذلك «الشيء» الذي لا شكل له يوصف: تراه ليلا في ازقتنا الملتوية الضيقة كصدر المغموم في ملاءة سوداء، فتحس لاول وهلة انه يهم ان يتضاءل ويتصاغر ويتخبأ، متسللا في ظلال الجدران القائمة الموحشة، ويقولون انه «امرأة!»

اما الجمال وما يوحيه الى النفس من معاني السمو، الجمال بلطفه وانوثته ونعومته...واما الحب وما يبعثه من متعة ونعيم لا يحدان، الحب بذله وكبره، وقوته وضعفه، وطمأنينته وقلقه، وبرده ولذعه بل بكل متناسباته ومتناقضاته، فلست واجداً بعض ذلك . ولعمري اذا ما قضي على عنصر الجمال في الادب ونضب معين الحب، اذا فقدت ذائقة الجمال وخبرة الحب، فهل يظل الادب حياً طلياً ممتعاً؟ لن يكون ذلك «الصدر المرمر» اذن الا قبرية كتب عليها: (هو الحي الباقي!)

٢ المرأة ـــ الام والاخت والزوج والعشيقة، والقوادة سفيرة

الحب التي يدعوها الترك : دلالة الهوى . هل رأيتها وهل عرفتها ؟ ان ادبنا لم يرها ولم يعرفها . كتب الجاحظ عن لصوص الليل ولصوص النهار ووصف جماعة الشحاذين في عصره ، الذين نبغوا في الشحاذة . طبقة من الناس على حدة ، لها مراسم ومصطلحات ولهجات وعادات واخلاق خاصة . ارجع الى كتاب البخلاء يبد لك الهدف الذي نرمي اليه . لقد وصف الجاحظ الشحاذين في عصره بدقة وبراعة،وانطقهم واحياهم . فما ذا علينا ان يكون هو الامام الذي به نأتم ، ان كان لا بد من امام ؟

ماذا علي اذا حدثتني نفسي يوماً ــ النفس الامارة ، بان اصف دلالات الهوى... ماذا علي اذا طمعت او اطمعت اخواني بان نصف المرأة كما هي في الحياة على انواعها ، وفي جميع احوالها ، وفي المباح والمنكر على السواء من صلاتها بالرجل ؟

تغضب «الاخلاق» ويتميز «الحلال والحرام» من الغيظ ، ويخاف فلان مثلا سطو حماة المجتمع وآدابه عليه ، اذا هو نوى صقل المرآة الصدئة لتنقل محاسن المرأة المجلوة كلها ، فيحجم عن وضع قصة «دلالة الهوى» واذاعتها بين الناس .

٤

رحم الله امرأ القيس قائد الشعراء الى النار ، كما في الحديث .
سأهتدي في هذه النقلة من فصل المواضعات الى فصل الاخلاق بهدى الملك الضليل ، الشاعر المغامر المقامر ، الشارب الخمر واللاعب بالنرد ، صاحب دارة جلجل — بنفسي دارة جلجل ! والملهي المرضع عن محولها ذي التمائم : حياة وثنية جاهلية « لا اخلاقية » . لو كانت رواية موضوعة لعدت في الطرف القصصية او في الصور الفنية الجميلة . واني لأتساءل ايها احسن : شعره الذي نظمه أم حياته التي بددها ؟ ولست على يقين من ان شعره يفضل حياته . كيف ؟ وهو جزء منها ، ليس الا : من يستطيع ان يفصل بينها ام من يستطيع ان يجد في حياته عناصر لم توجد في شعره ، وعكس ذلك ايضاً ؟ لعل الاصح ان تقول : كانت حياته شعراً في « حالة العمل » وكان شعره حياة « منظومة » . هنا اقف القلم هنيهة لاعتذر عما سبق به من رد العجز على الصدر ، فبرغمي ان الحياة والشعر والشعر والحياة ، لعبا على حبل امرئ القيس .

محا الغلو في اظهار فضائل الاسلام كثيراً من فضائل الجاهلية ، وطمست المبالغة في الاشادة بمحاسن الدين الجديد على كثير من

محاسن الوثنية ، اذ صور ذلك العصر البائد باشد الالوان سواداً ليطلع منها العهد المحدث بأشرق وجه واصبحه . ويغلب على الظن انهم لم يفكروا في الرجوع الى ذلك التراث المهجور الا بعد ان انفرجت الازمة الدينية قليلا ، ومرت السنون على الوهلة النبوية الاولى ، فاضطروا بقيام الشعوبية واستفحالها الى النبش عن تلك الدفائن . ويخيل الي انهم وجدوا عصرئذ ما كان موجوداً . . وما لم يكن له وجود ، فغالوا ايضاً وافرطوا من بعد ، كما فرطوا من قبل .

فضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية ! أتقول : كبرت كلمة ؟ لا ، فلست اعني : دينياً او اخلاقياً ، وليس هنا موضع معارضة ذلك القديم الماثل في الحجارة بهذا الجديد الحي في القلوب ، ولا مقايسة ذلك الاول الأقرب الى الفوضى بهذا الآخر الادنى من النظام . انما عنيت المادة الادبية او الفنية التي استمدتها المعلقات مثلا . واعيد القول دفعاً للالتباس وزيادة في التأكيد : لا يذهب الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، فاني قصرت واقصر الكلام على القيم الادبية والفنية الصرف .

اذا ذكرنا الآن ما سبق ذكره من فعل المواضعات البيانية والاجتماعية والاخلاقية والتقاليد والاحكام السابقة وخوف السخرية وتعدد طبقات الناس في سلم الاجتماع — أي العوامل المختلفة التي

وصفنا آثارها في الآداب وضربنا لها الامثلة — كان اول ما يتبادر الى الذهن ان العهد الجاهلي من وجهة نظرنا في هذا البحث هو العهد الادبي الامثل ، لضعف اثر تلك العوامل جميعاً فيه . واذ كانت حياة امرئ القيس صورة مصغرة لذلك المجتمع العربي، فان شعره هو النموذج الاعلى لادبه ، الادب الجاهلي الوثني الطليق : لم تغم عليه المواضعات والتقاليد والبيانيات فتقصية عن الفطرة السليمة والطبع الصادق ، ولم يوقر بالهموم والمقاصد الاخلاقية التي تحول سياقه من الفن الخالص الى الوعظ المشوب ، والوعظ ان جاز ادخاله في الادب فأحر به ان يعتبر ابعد الانواع عن حقيقة الادب وطبيعته .

نجد في كتب الادب القديمة أن امرأ القيس اول من صنع في شعره كذا و كذا ، وهو اول من شبه كذا بكذا الخ. فان لم نأخذ هذا القول على حقيقته او لم نؤمن بصحته « تاريخياً » فلا اقل من حسبانه رمزاً او اتخاذه مثلا لما يستطيع الشاعر العبقري ان يؤثل من ذاته المعنوية في لغة قومه وادبهم ، وهو المراد بالطابع الذي يقال انه خاص ولا يعفى اثره . بيد انه لا يكاد « يقع في الملكية الشائعة » حتى يتهافت عليه فقراء الشعراء ، يستعيرونه كما يستعير فقراء التجار « توقيع » ذي الاعتماد الموثوق يفتحون به لسندهم باب السوق . ثم يشيع استعمال ذلك الطابع ويكثر تداوله ، منافساً العملة

الدارجة ، فيتألف من ذلك ما يسمونه المواضعات البيانية او العرف الادبي او « كليشه » الـكلام . ثم تختم هـذه الفترة الفاترة بنبوغ شاعر عبقري آخر يكون هواه في ان يحكم بطلاق تلك الالفاظ بعضها من بعض ، مفسداً موقعاً البين هـادماً « البيوت » المتداعيـة ناقماً من طول العشرة الالفة المخـدرة ، ثم يتحول هـواه الى عقد زواجات بين تلك الالفـاظ جديدة عجيبة ، غير محتذ مثـالا ، بل موقعاً توقيعه طابعاً بطابعه ، ويقولون في ترجمتـه : هو اول من فعل في شعره كذا واول من شبه كذا بكذا ، وهكذا . . .

ابتدع امرؤ القيس ووضع ، وتواطأ الشعراء من بعده وتواضعوا. ابتدع لانه — ولست اعلم هل عمر طويلا — عاش كثيراً وشقي ونعم . هو « العيّاش » صـاحب عفراء والعذارى والحبلى والمرضع. فجع بابيه فلمـا « اتاه الحـديث » لم يشأ ان يفجع بدست النرد الذي كان بدأ به وقال كلمته المأثورة : اليوم خمر وغداً امر ! هوى تاج الملك عن رأسه المزهو المتخايل عجباً ، فهو شريد طريد . لقي حتفه بحـلة قيصرية مسمومة لانه رفع عينه الى بريا الروم فقتلته الشهوة . لقب «ذا القروح» وقبلُ كانت له كبد مقروحة دلل عليها فأباها عليه الناس لا يشترونها . حياة فيها عناصر التراجيديا جميعاً ، و كانت زهرة الارستقراطية العربيـة في ذلك العمران الوثني . كذلك في شعره مذهب فلسفي في الحياة : النزعة الابيقورية . وتقوم ابيقوريته

على اربعة اركان ، مثل كل بيت : الصيد والخمر والمرأة والحرب .
لعله الآن يدور مع الشعراء في احد بروج الجحيم — رحم الله قوماً يقوده الضليل — وهو ينشد وهم ينشدون :

كأني لم اركب جواداً للذة
ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروي ، ولم اقل
لخيلي : كري كرة بعد اجفال!

فاذن لم يعرف امرؤ القيس ، سواء في حياته أم في شعره ، المواضعات الاخلاقية التي تورث صفات الجبن والمداجاة والرياء في حياة الناس وفي ادب الادباء ، او فلنقل انه كانت في عصر امريء القيس « اخلاقية » خاصة طوتها الاخلاقية الاسلامية الجديدة .

لنا صديق زعم انه يهم بتمجيد تلك الجاهلية الوثنية ، ويميل الى الاشادة بمحاسنها ، لا لانها شطر من تاريخ العرب وعنصر في قوميتهم — شطر جليل وعنصر نفيس أقصيا عن التاريخ والقومية — بل لانه حرج الصدر جداً بتلك « الطفرة » الاسلامية كما يقول ، يؤلم نفسه غلوها في النعي على ذلك الطور اخلاقه وعاداته واوضاعه وعباداته . زعم انه سيعمل على « احلال الشيطان في صدر الانسان » وسيعين على ارجاع ابليس الذي أخرج — كما يقول — من جنة الاساطير الدينية ، الى جنة الآداب الرفيعة ، يريد انهم افرطوا في

تنفير الخلق من طيبات العيش حلالها وحرامها ، وبالغوا في تزهيدهم في ملذات هذه الدنيا العاجلة ، وغلوا في الحث على قتل الشهوات الطامحة واخماد الاطماع المضطرمة . يقول : ان ابليس عنصر لازم في الادب وعنصر لازم في الحياة ، فاذا أُخرج منهما طرداً بالسياط او رجماً باللعنات ، كانت الحياة نوءباً ممتدة بين القطبين تصل الازل بالابد ، وكان الادب انشودة السآمة .

هذا رأي فتى متطرف مولع بالاغراب في الرأي . ولست ادري ما نصيبه من صحة الحكم ولا ما سيكون حظه من انجاز الوعد . ولكن احب ان اشرح في هذا الصدد ما اعنيه هنا بكلمة « لا اخلاقية » . لست اعني ما كان منافياً للاخلاق المصطلح على انها فاضلة او ما كان داعياً الى نقيضها ، حاثاً عليه . كلا ، فانا اعني ما كان خلواً من الهموم الاخلاقية مجرداً من نية الوعظ وقصد العبرة ، واعني هذا ليس غير . قد تأتي العبرة الواعظة عفواً وقد تكون ابلغ كذلك ، لكنها اذا لم تأت ، فيا للقرد ! ليس هذا بضار الادب من جهة انه ادب صرف . كثيراً ما سمعت اخواناً لي يتساءلون منكرين : ما المغزى من ذلك كله . . وماذا يريد هذا المؤلف . . واين العظة والعبرة الخ ؟ فما يدريهم ، لعل الشرط الذي تقتضيه طبيعة الادب هو ان لا يكون مثقلا بالهموم الاخلاقية . وعسانا ان مدّ الله في عمر هذا البحث فبعد المدى ، نلتقي في منعطف الطريق ، بين

الدخول فحومل، باولئك الحكماء الذين لا يرون في الادب الا لهواً ولعباً ولذة ومتاعاً ولا يحبون الادب الا كذلك . وقد نلتقي في منعطف آخر بمن يقولون ان الادب لا يناقض الدين والاخلاق فحسب ، بل يناقض الحياة ايضاً ، والمشهور انه مرآتها وصورتها وترجمانها .

كلمة اخيرة يضعها القارىء في الحاشية : هذه امرأة قبيحة غاية في القبح ، وهذا رسام فنان . نسخت الريشة الحاذقة الصناع تلك الصورة « القبيحة » — نقول : يا لها صورة فنية « جميلة » ! وهذا القصاص الجهبذ الالمعي وصف رجلا من شذاذ الناس ، الخوارج على النظم والشرائع ، الذين يحيون ويموتون على هامش المجتمع وتقاليده الدينية الاخلاقية ، وصفه بدقة ومثله لنا ببراعة — نقول : تالله لقد أجاد وأحسن !

في الفنون والادب اذن غير قيم وغير احكام .

٥

ـــ الله ، ما اجمل هذا الحجاب !

كان اول التفاتي الى صديقي الذي همس بهذه « الصرخة » .

قال كلمته بلهجة تضمنت معاني الاعجاب والتلذذ والشوق . وكنا بانتظار الترام في عرنوس ، ظهر يوم وضاح يشعثه الغبار ، متردد بين الشتاء والصيف لكنه الى لذع الحر أميل . وأيت الدهشة في عينه وبصرت به وهو يكاد ينجذب الى حيث ينظر ، مأخوذاً . أتبعت نظري نظره فتسابقا خلف ذلك الطيف الذي مر معجلا . على بضع خطوات منا ، وكأن بيننا وبينه لج بحر خضم . كنا في مثل اليقظة الخائبة التي تعقب حلماً هانئاً رغيداً انقطع فجأة . حقاً ، ما كان اجمل ذلك الحجاب !

واخذ صديقي المفتون يصف تلك القامة الهيفاء في ملاءة لا تكاد تحجب من خطوطها شيئاً ، بل تزيدها دقة ووضوحاً : الجسم مفرغ فيها كأنها منه وكأنه منها ـــ لجلدها جلد . وهي في ازارها السماوي كحورية استعارت في هبوطها الى الارض ، زرقة الجو الصافي ، على احدث زي وارشقه والطفه .

واخذ يصف ذلك البرقع الاسود الذي يكاد يشتعل بنور ما تحته .

لا يكتم من الحسن الا بمقدار ولا يشف عنه الا بمقدار . ليس هذا بشراً ، إن هـو ألا لغز جميل يفتنك منه ما ترى ، ويغريك بمـا لا ترى ـــ بما ترجوه وتتخيله .

من لى بعلم ما اصاب يومئذ صديقي ؟ خيل الي ونحن واقفان عند عمود الترام انه انقلب بفعل السحر المبين شجرة من اشجار الربيع ، مزهرة ، اوت اليها صغار الطير ليلا ، ونامت قريرة مطمئنة سكرى بعبير الازهار . لكن رامياً رمى الشجرة بحجر عابثاً ، ففزع الطير وتناوحوا، فهم ذاهبون صعداً في الجو بينما الازهار منثورة على الثرى اشتاتـاً ، وكأنه سلك من الطيوب والانغـام انفرط في يد الطبيعة . لقد اخذت الخواطر والعواطف تتزاحم في صدر صديقي وتتوارد على لسانه متتابعـة متدافعة . فمنها ما كانت الاماني تحمـله على اجنحتهـا فيحوم في الفضـاء الطلق المشرق ، ومنها ما كان يسقط على الارض بثقل الخيبة والقنوط والعياء كأوراق الخريف الصفراء . هكذا بسم صديقي في برهـة وعبس ، وازهر وصوح ، و « عاش ومات ». لكنه على كل،افاض في حديث عذب شائـق مستحب ملأ انتظـارنا ذلك الترام الذي لا اراه مقبلاً إلا احسبه يتلكأ ويهم بالقفول (هذا من عبث الخيال،لان الترام بطيء ليس الا، ويزيد في بطئه انتظاري اياه . اما انه اخيراً يأتي فما لا ريب فيه .)

واخذ صديقي يحدثني عن فلسفة الملابس والازياء ، ملماً بوجهي

الفن والاخلاق او الجمال والنفع ، قائلا انهما على طرفي نقيض والغلبة ليست في النهاية للاخلاق او للاخلاقية السائدة في هذا العصر على هذا المجتمع . ومما اشار اليه اشارة خفية ان الحجاب لا « يؤدي وظيفته » في الحاضر او يؤديها معكوسة : اصبحنا فاذا بالحجاب الذي وضع لدرء الفتنة لا يحجب شيئاً بل يكشف عما قد لا يكون لو لم يكن حجاب . يقول دون جوان زير الغرب او تقول اسطورته: « ان النصرانية اذ حرمت العشق اضافت الى ملذاته لذة جديدة وضاعفت المتعة به» . ومن ينكر غواية الاعراض الذي ترجو اقباله، واغراء المنع الذي تطمع بقبوله ، ونعيم الحرمان الذي يمني بالعطاء ؟ وهم صديقي ان يزيد: كذلك فتنة هذه الاحجية التي مرت بنا معجلة مغمورة بالاسرار كالطيف الشارد من حلم . لكن الترام اتى ـ ألم أقل انه آت لا ريب فيه وان ابطأ ؟ . . العجلة من الشيطان لا من الترام ـــ فاكتفى بان قال ، خاتماً الحديث : عن ذلك عزاء ايها الصديق ، هو ان الحجاب الذي يفتن العالمين ليس اول وضع اجتماعي اخلاقي انتهى الى غير غايته . . . وبعد ؟ انه لجميل ، والطبيعة لن تغلب ، والناس الا قليلا مرآءون . ثم سقطت بيننا هذه الكلمة : « الله ، ما اجمل هذا الحجاب ! » مترددة وجلة كورقة من اوراق الخريف . فاذا بصديقي المفتون ، امامي في مقدم « الحافلة » كشجرة تعرت من زينتها ، يحدث صامتاً عن كآبة الحرمان المقلق والم الشوق

المذيب وعذاب النفس والحواس.

احسست ان صديقي في تلك الظهيرة لافيء له انفياؤه فانصرفت عنه. لكن ظللت زمناً اسمع في نفسي صدى تلك الانغام التي انبعثت من الشجرة المزهرة، تحت طالع مسعود.

١٩٢٥

فصل من

كتاب الشيطان

في الالهام الشعري

الشاعر ليس له شيطان

كالرجل لا ظل له ...

قد يكون ثمة عالم آخر، غير عالمنا المادي المنظور، مأهول بالارواح الخيرة والشريرة، لا يطلع عليه الناس جميعهم. ليس ما يمنع وجود ذلك العالم وقواه العجيبة، فان ثبات البشر على الايمان به في صوره المختلفة لدليل قاطع — لا اقول على وجوده بل على الحاجة اليه. وشيء يؤمن المرء به ويحس الى الايمان به حاجة، لهو — وان يكن غير موجود فعلا — اعظم خطراً واكبر اثراً في حياته، من موجود لكنه يجهله ولا يؤمن به ولا يجد من جراء الكفر به نقصاً. ولعمري هل للاشياء في ذاتها وجود ام هي ظلال الفكر الانساني في هذا الفضاء؟ وهل للاشياء في ذاتها قيمة ام هو الفكر الانساني يعطي القيم ويحرم منها، كما يشاء؟

وسواء أصح وجود ذلك العالم العجيب ام لم يصح ، فليس اجدر من الشعراء ان يكونوا به على اتصال ، وهم في كل عصر وجيل ، حملة الالهام العلوي الناطقون باللغة القدسية ، الذين يسترقون السمع من عالم الغيب استراقاً ليعودوا منه بانغامهم الساحرة ، ويملأون من محاسنه اعينهم ليخلعوا على الكون ، كلما ابلى من حلل الجمال حلة ، جمالا طريفاً . فلو لم يكن ذلك العالم موجوداً لاوجده الشعراء .

*

سألتُ ذات يوم : كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بعد أن كانوا على اتصال دائم بآبائنا واجدادنا ؟

فقيل لي : لقد رأوا الأُنس في هذا الزمن «أشطن» منهم فلاذوا بالفرار ، وهالهم ما في عالمنا من الشرور والآثام فهجروه . وعلى كل فان الجن ما زالوا « يظهرون » لكنكم لا ترونهم انتم !

هذا جواب امرئٍ متشائم يريد ان يبدي اسفه على العهود الخالية وحنينه اليها . والحقيقة ان العرب كانوا اسعد منا في فلواتهم حظاً ، وآنس في خلواتهم بصحبة تلك المخلوقات العجيبة . فان احدنا ليجد احياناً من شدة الشوق الى سماع احاديث غير هذه الاحاديث اليومية التي تعود سماعها من هؤلاء الاناسي ، ما يرضى معه النزول

ببلدة، مثل ظهر الترس، موحشة
للجن بالليل في حافاتها زجلُ ..

وليس اكبر فضلا ومنة على الناس من المفاجآت التي تقطع هذه السياق المملول في حوادث الحياة العادية ، فتذكرهم بانهم احياء ، بل ان هذه المفاجآت هي التي تغلي ثمن الحياة .

اتوا ناري فقلت : منـون* ؟ قالوا :
سراةُ الجن ! قلت : عمـوا ظـلاما !

ألا ان هذا الرجل الذي طرقته الجن ، وقد أوقد ناراً لطعامه ، لسعيد ! بوركت الجن الذين آنسوه في وحشته : هو سمير بن الحارث الضبي ، اعني انه ليس صديقنا السيد حليم دموس (مثـلا) الذي لم يطرقه الجن مرة واحدة ، ولن يطرقوه ، لا اذا اوقد ناراً لطعامه ، ولا اذا اشعل مصباحاً لنظم قصائده ، فان المسألة مسألة مزاج .

كان لكل شاعر من العرب شيطان يلقي اليـه الشعر ، يسمونه «التابع» او «الرئي» . فكان لحسان بن ثابت صاحب من بني الشيصبان (وهم قبيلة من الجن) فكانا يتناوبان قول الشعر —

فطوراً اقول وطوراً هُوه ...

ولا مراء في ان اجـود شعر حسان ما كان يلقيـه اليه تابعه

---

* قوله «منـون» اي من انتم ؟ ذكر علماء اللغة ان هـذا اللفظ نادر الاستعمال . ورأيي ان قيمته هنـا في نـدرة استعماله ، فهي التي جعلته خليقاً ان يخاطب به الجن ، ولعل الانس لا يتخاطبون به فيما بينهم والله اعلم .

الشيصباني ، ولكن انّى لنا اليوم بعلامة في الشيطانيات يميز بعض القولين من بعض ؟

كذلك « ابو النجم » . فان سألتني : من ابو النجم هـذا ؟ اجبتك لا ادري ـــ سوى انه الرجاز القائل مفتخراً:

اني وكل شاعر من البشر
شيطانه انثى وشيطاني ذكر!

وهـذا بيت من الشعر اهديه الى القـائلين بعـدم المساواة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا الانسي ،فانها على ما يظهر، ليسا بمتساويين ايضاً في عالم الجان. ولكن لا ننس ان في شعرائنا من يؤثر ان يكون شيطانه انثى : بشارة الخوري مثلا الذي قال (او قوله شيطانه) طائفة من احسن الشعر في المرأة والحب وما الى ذلك* . والمسـألة مسـألة مزاج ايضـاً : هذا شاعر يُلقى اليه ـــ واحد ، وما اكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة طواحين الفاظ ! قل في هذا البـلد السعيد من ليس يقول الشعر الا لان شيطـانه يغريه بقوله ، فاذا لم يقل كان وقراً على صدره،او احس بمثل دبيب النمل في سويداء قلبه.

ـــ ألك ايهـا الشاعر شيطـان؟ اذن فقل ثم قل ! والا فانقلب طاحوناً على ضفاف العاصي ...

دعوة مستجابة ، في ليلة القدر ، التي هي خير من الف شهر !

---

* اما شعره السيـاسي فقـد غلبت صفات الذكورة في شيطانه .

٢

نظر رسول الله الى زهير بن ابي سلمى فقال : اللهم ، أعذني منه شيطانه ...

وليس في شياطين الشعراء اعظم شأناً من « مسحل بن اثاثة » هاجس الاعشى صناجة العرب الذي كان — على رأي بعض نقدة الشعر — أغزل الناس في بيت ، واشجعهم في بيت، واخشهم في بيت.

ولقد اجتمع الشاعر وشيطانه ذات يوم ، وجهاً لوجه ، فتحدثا كما يتحدث الرجل الى خياله في المرآة .

قال الشيطان ولم يعرف الاعشى بنفسه : من انت ، واين تقصد ؟

قال الشاعر : انا الاعشى ، اقصد قيس بن معديكرب .

— حياك الله ! اظنك امتدحته بشعر ، فأنشدنيه .

فانشد الاعشى مطلع القصيدة :

رحلت سمية ، غدوة ، اجمالها
غضباً عليك ، فما تقول بدا لها ؟

قال الشيطان : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟

— نعم .

— من «سمية» التي تنسب بها ؟

ــ لا اعرفها ، وانما هو اسم ألقي في روعي .

فنادى الشيطان: يا سمية ، اخرجي ! فاذا جارية خماسية خرجت ، فقالت : ما تريد يا ابت ؟

ــ انشدي عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معديكرب ونسبت بك في اولها .

فاندفعت تنشد القصيدة حتى آتت على آخرها، لم تخرم منها حرفا، ثم انصرفت . فقال الشيطان للشاعر :

ــ هل قلت شيئاً غير ذلك ؟

ــ نعم . قلت اهجي يزيد بن مسهر :

ودع هريرة ، ان الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا ، ايها الرجل؟

ــ حسبك ! من «هريرة» هذه التي نسبت بها ؟

ــ لا اعرفها ، وسبيلها سبيل التي قبلها .

فنادى الشيطان : يا هريرة ! فاذا جارية قريبة السن من الاولى . فقال لها : انشدي عمك قصيدتي التي هجوت بها يزيد بن مسهر .

فانشدتها من اولها الى آخرها، لم تخرم منها حرفا.

ويقول الاعشى ، وهو راوي هذا الحديث الذي تجده في كتاب «الاغاني» بسنده المتصل : فسقط في يدي وتحيرت وتغشتني رعدة . ولكن الشيطان رثى لحاله ،فقال له وهو يضحك:

— ليفرخ روعك يا ابا بصير ! انا هاجسك مسحل بن اثاثة الذي ألقى على لسانك الشعر .

وفي شعرائنا نفر لا يفتأون « ينفخوننا » باحاديث مكذوبة عن « سميات » و « هريرات » لم يعرفوهن قط ، لعلة بسيطة هي انهن لم يوجدن الا في الغزل العربي الذي يقلدونه تقليد القردة .

وما جزاء هؤلاء الشعراء — اصطلاحا ، او كما يسمون انفسهم — الا ان يقفوا ، في حضرة مارد من الجان كمسحل ابن اثاثة ، وقفة الممتحَن الذي « لم يحفظ درسه » . فلن يقولوا له حينئذ : « ان شيطاننا القى في روعنا هذا الاسم او ذاك ، فهو يعلم من سمية وهريرة وهند ودعد ومي وهلمجرا .. » يقيناً ، لن يقولوا له ذلك ، ومن ادرى من مسحل بانه ليس لهؤلاء شيطان ؟ والمسألة مسألة مزاج ، فان الجن ما زالوا يظهرون او يعزفون وإن لم يكتب لعامة الناس ان يروهم او يسمعوا عزيفهم ، كما ان عبقر* لم يذهب به زلزال ولكن ليس بعبقري من أراد او من ادعى العبقرية .

وممن اعترف من شعراء العرب بان شيطاناً كان يلقي الشعر على

---

* عبقر موضع يكثر فيه الجن ، ثم نسب العرب اليه كل شيء تعجبوا من قوته وحسنه . ومعنى لفظة Genie في اصلها اللاتيني « الشيطان المواتي او المفضل » فاذن هي ولفظة « عبقري » العربية اصلا واصطلاحا ، اختان .

لسانه جرير القائل :

اني ليلقي عليّ الشعر مكتهل

من الشياطين • • • • • • •

فاستطاع جرير ، بعون شيطانه ، على مهاجاة ماية شاعر وشاعر، أسكتهم واخزاهم جميعاً. وكذلك الفرزدق، اقر بانه كان يستغيث بشيطانه كلما اعياه قول الشعر ، فاذا اغاثه قال واجاد .

اما «السنقناق» فهو شيطان بشار بن برد الاعمى . وهنا مسألة : كيف كان السنقناق يظهر لبشار ؟ الجواب — ان كان لكل مسألة جواب — هو ان عيني الاعمى ، لاسيما اذا كان بشاراً ، تكونان مفتوحتين على باطنه ، فكان بشار يرى شيطأنه في نفسه .

ولم يختص بالجن الشعراء وحدهم ، بل كان للمغنين منهم نصيب . وهذا «زرياب» امامهم في الاندلس ، الذي زاد في اوتار العود وتراً خامساً ، اختراعا منه — يقول ان الجن كانت تعلمه . ولعل الوتر الخامس مما آتاه شيطانه ليزيد في سحر الفن . وهذا مصداق ما يذهب اليه بعضهم من ان الفنون الجميلة ، وخاصة الشعر والموسيقى، هي من صنع ابليس وكيده ، ان كيده لعظيم !

٣

لم ينفرد العرب بمعرفة هذه الارواح الخيرة التي تعين الخلق على احتمال آلام الحياة ودواعي السأم فيها ، بما توحيه الى هؤلاء اليامين الذين نسميهم بالموسيقيين والشعراء وارباب الفنون. فقد كان للاغريق القدماء آله يدعى « ابوللون » هو آله الموسيقى والرقص والشعر والالهام ، يعنو لعزته وجلاله شاعرهم ونبيهم على السواء ، اذ كان يكشف للنبي عن المغيبات ويجري على لسان الشاعر اغاني الحماسة . وكان موطن ابوللون على الاكثر ، جبل «البرناس» المكسوة جنباته بالغابات والرياض ، الريانة مروجه بماء الينبوع الاقدس .

هنالك كانت ربات الوحي Muses يحففن بالآله العظيم ، عازفات على الاوتار ، منشدات ، مسبحات بحمد الآلهة . وكانت صواحب ابوللون تسعاً ، منهن « اوترب » ربة الشعر الغنائي ، و « كاليوب » الموحية الى الشعراء باساطير الاولين . فهل تعجب من ان الاغريق في العصور الخالية سموا الى سماء الفن والشعر ، وهؤلاء الآلهات والآلهة جميعاً في عون فنانيهم وشعرائهم ؟

*

ذكر لي الاستاذ الريحاني ان العرب في «عسير» الأعلى يقولون

اليوم عن الشاعر : « هو رجل سقته الجن » وانه سأل احدهم كيف يكون ذلك ؟ فاجابه ان الشاعر اذا اراد نظم قصيدة ، يصعد الى قمة جبل هناك ومعه شاة يذبحها ويقربها قربانا . ثم يضطجع في ظل شجرة ، فاذا تُقبل قربانه احس في نومه كأنه يسقى شيئاً ، فينهض ويقول الشعر ... في عبير الاعلى اذن « برناس » عربي تسرح فيه الجنيات الحسان اللواتي يُرضعن الشعراء من لبانهن الزلال ، لتعذب السنتهم ...

*

يروى ان الاله الاغريقي «ديونيزوس» كان يأتي الشاعر «اشيل» في منامه فيملي عليه قصصه التراجيدية . فاذا لم نصدق بهذا ، فهل نكذب ايضاً سقراط الذي اقر ، وهو الحكيم ، بان له شيطاناً ؟

والشاعر الايطالي « تاسو » كان يزوره في ليالي الارق روح عجيب ، فيعطف على وسادته ويجاذبه اطراف الحديث . ويقول « فوربس » من معاصري شكسبير ان السحر كان في اسرة الشاعر الانكليزي الاشهر ، وانه كان يتعاطى فنونه التي تلقاها عن اهله . فالجيد الذي في قصصه التمثيلية هو من وحي شيطانه .

اما الشاعر الفرنسي « بوالو » القائل في قصيدة هجاء باللاتيني الحديث : « شيطان الشعر ! كيف تأمرني ، وانا الغريب المنبت ، المولود وراء الالب ، ان اعسف النظم اللاتيني لا انفك اتخبط في

معاميه ؟ » فهو صاحب ارجوزة في صناعة الشعر ، فيها من الشعر بقدر ما في « الفية ابن مالك » . ولهذا نقول انه يكذب في زعمه ان شيطان الشعر امره بشيء ، الا ان يكون امره بان يسكت ، رحمة بالناس .

اني لا كاد اسمع القاريء يقاطعني وهو يبتسم ، غير مصدق شيئاً من هذا الحديث ، بقوله :

— وبعد ؟ اكثر ما شئت من الشواهد النقلية ، وعزز ما وجدت الى ذلك سبيلا ، اقوال العرب باقوال الافرنج... فلن اؤمن قط بان الشاعر يوحي اليه آلة من آلهة البرناس ، او يلقي على لسانه الشعر شيطان من شياطين الفلوات . بل ايش تلك الآلهة الاغريقية وايش هذه الشياطين العربية ؟

فانا اجيب بقولي : عفواً يا سيدي القاريء .. اما اذا اردتني على طرح هذه الاقوال والشواهد جميعاً ، بقين انها صرف كذب ومحض اختلاق او ضرب من الهذيان لا يقوم على اساس ، فلا . واما اذا اعتبرتها « واقعاً » لا يسعنا انكاره على الصورة القطعيـة ، بل ينبغي النظر فيه وتأويله علمياً اذا امكن ، لان الهذيان نفسه « حقيقة » تقوم على اساس ويستطاع تأويله علمياً ، فانا معك . ولكن هذا بحث تضيق به مقالة اليوم وساعقد له مقالة اخيرة تكون ختام الكلام في الشعر وشياطينه . واحب ، قبل ذلك ، ان انقل اليك نادرة طريفة

من نوادر الميثولوجيا العربية ، على رجاء ان تجد فيها لذه وفائدة :

نشأ بسجستان في اواخر القرن الثاني للهجرة رجل يدعى سهل بن ابي غالب الخزرجي ويلقب بابي السري ، ادعى رضاع الجن (مثل شاعر جبل عبير الاعلى) وان صلته بهم محكمة. ثم وضع كتاباً ذكر فيه كثيراً من اخبارهم ووقائعهم وحكمتهم وانسابهم واشعارهم ،وزعم انه بايعهم للامين بن هرون الرشيد بولاية العهد،فقربه الرشيد وزبيدة وابنها الامين ، واجازوه جوائز سنية . ثم اخذ ينقل اليهم ، حيناً بعد حين ، شعراً جيداً من نظم الجن والشياطين والسعالى ..

ـــ وهل صدق الرشيد هذه الخرافة ؟

ـــ ان الرشيد لم يصدق ولم يكذب ، بل قال له : « ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً ، وان كنت ما رأيته فقد وضعت ادباً .ولست اسأل القارىء الان ،الا ان يقول بقول الخليفة العباسي، فهو حسبي .

٤

يقول ابو اسحق المتكلم من اصحاب الجاحظ ما خلاصته : «اذا استوحش الانسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه ، فيرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يسمع . . فاذا توسط الفيافي واشتملت عليه الغيطان في الليالي الحنادس ، تجده عند اول وحشة او فزعة وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور . . » على هذه الصورة يشرح الاعتقاد بالكائنات الخارقة ، كالجن والشياطين والسعالى ، التي آمن العرب بها وآمن بمثلها اقوام آخرون . ولعل ابا اسحق لم يجد في شرحه هذا مقنعاً ، فلم يلبث ان زاد عليه قوله : « وربما كان في الاصل كذاباً صاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة : رأيت الغيلان وكلمت السعلاة . ثم يتجاوزه الى ان يقول : وافقتها ، ثم يقول : تزوجتها .. » وهكذا ، اي انه — رغم اجادته في تصوير الظرف المادي الذي قد يكون له بعض الاثر في تلك الظاهرة السيكولوجية — انتهى بشرح احدى العقائد العامة التي عاش عليها البشر وما زالوا ، اوهن شرح بأهون حجة ، نعني حجة الكذب ، فهو اذن لم يشرح شيئاً . وليس ايسر على المرء

الذي يحدث حديثاً لا يفهمه ولا يجد تأويله من ان يجبه محدثه بهذه الكلمة الموجزة التي تغني عن كل تطويل وتدفع كل هم. انك لكاذب!

ولا يلتبس الامر على القارئ ! فلست بالناعي على ابي اسحق انكاره الجن والشياطين وسواها ، كما اني لم ارم الى اثبات ان لهذه العجائب وجوداً حقيقياً فعلياً مستقلا عن الأناسي الذين رأوها او « توهموها » . ولكني اسأل نفسي ، اذ لم اجد مقنعاً في ذلك « التكذيب » : كيف يري الانسان (كما يقول هو) ما لا يُرى ، ويسمع ما لا يسمع ؟ أليس هذا امراً عجيباً جديراً بأن نعرف تأويله؟ هل للعلم الحديث كلمة يقولها ، في هذا الباب ، غير كلمة « كذبت »؟. فاما وقد ذكرت « العلم الحديث » فأني اعتذر الى ابي اسحق المتكلم الذي عاش في القرن الثالث للهجرة ، عن مطالبته بما لم يُعلم الا بعد الف سنة . وحسبه انه طرح ، في صورة الجواب ، ذلك السؤال ..

*

كان القدماء من الاغريق والرومان يقولون ان للشاعر الملهم بصراً ينفذ الى ما وراء العالم المادي الظاهر — الى عالم الغيب . وكان الشاعر يُسمى باللاتينية Vates ومعناه « النبي ». ولقد عكس العرب القضية اذ وصفوا النبي محمداً « ص » بأنه شاعر وقالوا : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ! » فأنكر النبي انه شاعر : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو الا ذكرٌ وقرآنٌ مبين » ، وتحدى

العرب بسورة منه ، بل بآية من سورة . ورُوي انه كان اذا تمثل بيتاً من الشعر لا يقيم وزنه بل يكسره ويتمثل البيت مكسوراً — مبالغة في دفع التهمة . ويقول الجاحظ في هذا المعنى : « سمّى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمى العرب كلامهم ، على الجملة والتفصيل : سمى جملته قرآناً كما سموا ديواناً ، وبعضه سورة كقصيدة ، وبعضها آية كالبيت ، وآخرها فاصلة كقافية . » أترى الجاحظ يشير في عبارته هذه الى امرٍ ما — الى الاعتذار للعرب عن خلطهم بين الشعر الذي يعرفونه وهذه الآي المنزلة ، دون ان يؤخذوا باختلاف الاسماء ؟ ليس ذلك على خبثه بعزيز . ولكن رأيي هو انهم ، بزعمهم ان القرآن شعر والنبي شاعر ، تجاوزوا الصور والمباني — اي السورة والقصيدة ، والآية والبيت ، والفاصلة والقافية — الى الجوهر ، جوهر الشعر ، على نحو ما فعل الرومان القدماء اذ سموا شاعرهم نبياً يوحى اليه .

*

سموا الشاعر الملهم نبياً ، اعتقاد انه ليس بشراً مثلهم بل هو بشر وزيادة . . وهذه الزيادة انما تأتيه من الشيطان العربي الذي يلقي الشعر على لسانه ، او من « الموز » اليونانية التي توحيه اليه ، او من الاله الروماني الذي ينزل الآيات عليه تنزيلا . وهذه الزيادة هي انه يرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يسمع ، كما قال ابو اسحق المتكلم . ولا

يندر في الشعراء والفنانين ــ الفحول العبقريين ــ من يعتقد مثل هذا الاعتقاد . فان الشاعر العبقري الذي يبهر عامة الناس ببديع معناه ويسحرهم برائع قوله حتى يسمعوا كالصوت الهابط من الملكوت الأعلى ، يكبر هو ايضاً هذا الاعجاز ويعجب من انه هو مستودعه ومظهره ويتساءل مشدوهاً : من اين ، ممن هذه الامانة العظيمة ؟ ذلك ان العبقرية شذوذ ، شذوذ بلا مراء ، لكنه ادى ببعضهم الى اعتبارها مرضاً او عاهة في الجهاز العصبي ، ويذهب « لومبروزو » الى انها صورة ملطفة من داء الصرع ، تصحبها نوبات مفاجئة عنيفة ، يتبعها خور جسماني شديد .

أجل ، ان كثيراً من العلماء يردون اليوم هذا الرأي قائلين ان اغلب العبقريين المرضى كانوا اولي عبقرية رغم الامراض التي اصيبوا بها ، لا بسبب تلك الامراض ، سواء أكانت عصبية أم غير ذلك . فالمرض في الرجل العبقري ليس قاعدة عامة بل حالة استثنائية. ولكن هؤلاء العلماء ، على كل ، ليسوا بمنكرين ان العبقرية بحد ذاتها ، سواء الصحيحة والعليلة ، شذوذ كما سبق القول ، شذوذ يراه صاحبه في نفسه ويراه فيه عامة الناس ، فيشدهم ويبهرهم ، ثم تعييهم الحيلة ولا يجدون تأويله ، فيحيلونه على عالم غير عالمنا الظاهر ويعزونه الى قوى غير قواه المعروفة : الجن وموحية الشعر والآلهة ، وهي رموز سننظر فيما وراءها او اسماء لعلنا نوفق الى معرفة مسمياتها.

١٠٧

٥

ابو عامر بن شهيد من عيون ادباء الأندلس وشعرائها عاش في القرنين الرابع والخامس للهجرة . له رسالة اسمها «التوابع والزوابع» كثيرة الشبه برسالة «الغفران» للمعري ، يقول في اولها ان شيطانه زهير بن نمير زاره يوماً فتذاكر معه اخبار الخطباء والشعراء مع التوابع والزوابع* وأظهر رغبة في لقائهم والتحدث اليهم . فاركبه الجني متن جواد ادهم «سار بنا — كما يقول — كالطير يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدوّ فالدو ، حتى لمحت ارضاً لا كأرضنا ، وشارفت جواً لا كجونا . . فقال لي زهير : حللت ارض الجن ، ابا عامر !»

وهناك في ارض الجن،لم يجتمع الأديب الأندلسي بخطباء العرب وشعرائهم (وفي هذا احد الفروق بين رسالته ورسالة ابي العلاء) بل باصحابهم الذين كانوا يلقون رائع الشعر وبديع القول على لسانهم ، من شيطان امرئ القيس الى شيطان ابي نواس ، كأن هؤلاء الشعراء ليسوا شيئاً مذكوراً ، لكنهم ظلال اولئك التوابع والزوابع في عالم الغيب — ظلال تُلقى على عالمنا هذا : الشاعر هو ظل

* تقدم ان العرب كانوا يسمون شيطان الشاعر : الرئي والتابع . فكذلك الزوبعة هو الشيطان او رئيس الجن .

شيطانه على الارض .

لم نذكر ابن شهيد لنأتي على ذكر رسالته الممتعة عن شياطين الشعراء ثم نقف عند حد التنويه باسلوبه الطريف . كلا ، فأن له فيما عدا ذلك رأياً في الأدب قيما ءذا صلة بما نحن في صدده. يقول من كلام له على الطبع والشعراء المطبوعين : « ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه* فمن كانت نفسه من اصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً يُطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها . . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه والغالبُ عليه جسمه ، كان ما يُطلع في تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق . فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتي منه في حسن النظام صور رائعة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس . فاذا فتشت لحسنها اصلا لم تجده ، وللجمال تركيبها وجهاً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسنُ من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنوَّرتُها من اذرعات ، واهلها
بيثرب ، أدنى دارها نظرٌ عال !

« فهذه الديباجة اذا تطلبت لها اصلا من غريب معنى لم تجده ،

* ألم نقل اكثر من مرة ان المسألة مسألة مزاج ؟

ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى . »

ويقول الدكتور احمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الاندلس » : « وهو — اي ابن شهيد — يميل الى ان الافتنان في الكلام او البراعة في النظم والنثر او ما يسمونه بالبلاغة ، نوع من الالهام او شيء من الغيبيات او سر من اسرار النفوس .. »

سر من اسرار النفوس ! فما هو هذا السر الذي سماه الاولون : الشيطان و «الموز» Muse والآله ؟ او ما هي حقيقة الوحي والالهام في الابداع الفني والشعري ، والجواب على المسألتين واحد ؟

يقول الكاتب الفرنسي بول بورجه : « ان النفس الانسانية كالأرخبيل الذي تبرز جزره على سطح البحر ، وما الجزر الا ذروات بادية للعيان من آساس غير ظاهرة ، بل من جبال تغمرها الامواج . فكذلك تقوم افكارنا وعواطفنا واراداتنا على بناء سيكولوجي عظيم خفيت آساسه عنا وعن سوانا . » وهذا البناء الخفي او الباطن هو ما يسمى في السيكولوجيا الحديثة باللاوجداني Inconscient ومن اعماقه يصعد الوحي الفني والالهام الشعري اللذان لا يهبطان ، كما ترى وكما هو الشائع ، من عليين . والاعتقاد بان للشاعر شيطاناً يلقي الشعر على لسانه لا « موزاً » من بنات الآلهة توحيه اليه ، اقرب الى هذا الرأي العلمي ، لان الشياطين ، كما هو معروف ، هي من العوالم «السفلية» .

فكل فاعلية فنية او شعرية عظيمة — في الفنانين والشعراء العبقريين على الاخص — لها جذور تستشري فيما وراء الادراك اي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الانسانية. ومن هذا اللاوجداني مادة الابداع في الفن والشعر، وفيه تأويل ما كان القدماء لا يعرفون تأويله من حالات الوجد والكشف، والوحي والالهام، فيرمزون عنه بالموز والاله والشيطان. ولذلك كان كثير من الفنانين يتوسلون لايجاد تلك الحالات في انفسهم، بضروب من المهيجات: كقهوة فلتير وبلزاك، وكحول بوو وهوفمان وموسه، وكوكايين موبسان، وغيرهم، وهي مهيجات لما في اعماق اللاوجداني من العناصر الكامنة التي تثور حينئذ وتطفو على سطح الوجدان، فتتألف منها آيات الفن والشعر — كما تبدو احياناً في عرض البحر، بين بكرة وضحاها، جزيرات لم يرها الرحالون من قبل، ولكنها برزت فجأة بفعل النشاط الخفي العظيم في بطن الارض، فهم ينظرون اليها مشدوهين ولا يكادون يصدقون.

وليس يعني هذا ان العبقرية، لاستمدادها من اللاوجداني وهي المنطقة التي لا سلطان للادراك عليها، تكون فوضى بلا نظام. اجل انها تصعد من تلك الاعماق البعيدة خليطاً من شتى العناصر، الا انها لا تلبث ان تدخلها في الوجداني وهي المنطقة التي يسيطر العقل عليها، وفيها تعمل بعناء او من غير عناء، بجهد او من غير جهد، على

١١١

تحقيـق اجمل نظام وحدة في اكثر العناصر اختـلافا ، وهذه هي معجزة العبقري .

١٩٢٦

الشاعر الشهيد

هذه كلمة صديق في صديقه .

كنا في المدرسة وبعدها ، ثلاثة او اربعة من الفتيان لا نكاد نفترق ، و كان يجمع بيننـا الصلة التي تجمع بين المسـافرين او رفاق السفر ، و كانت رحلتنا الى « المستقبل » في طريق سهل مهدته طيوف الخيال ، و كان في « زوادتنا » كثير من الاماني والاحلام .

وكان عمر حمد احـد هؤلاء الثلاثة او الاربعة ــ خير رفيق ، يؤنسنـا بشعره الذي كان لا يفتأ يترنم به كأنه يستحث عزائمنـا ، ويستفز قوانا ، حتى نصل الى الغـاية التي كنا نتخيلها تخيلا ، بل نتوهمها . . وها قد تصرمت الاعوام ولم ينته واحـد منا حيث كان يرجو ، ولله ما اطول الشقة !.. لقد انتقلنا من عالم الخيـال الى عالم الحقيقة .

اعـدت ذات يوم ذكرى ذلك العهد البعيد القريب ، ذكرى الصبى ، فقلت ان احد اصدقائنا ، لما سئل : ماذا يطمع ان يكون في المستقبل ؟ ــ اجاب : الخليفة ! و كان عمر حمد يرجو ان يكون

شاعر الخليفة . اما « الخليفة » فقد استيقظ من هذا الحلم كما استيقظ من مثله الصياد ، احد ابطال « الف ليلة وليلة » . واما « شاعر الخليفة » فقد نام ، رحمه الله ، نومة لا تؤنس وحشتها طيوف الاحلام .

*

وبعد ، فهذا المختار من شعر عمر حمد نزفه الى ابناء الضاد ، احياء لذكرى الشهيد وتكريماً له . فهو ترجمان الروح التي كانت سائدة على النشء في تلك الايام . وكان اذ يتلوه ناظمه ، يثير في نفوس السامعين حماسة لا توصف ، واعجاباً ليس له حد . ولو مد الله في عمر صاحب الديوان لأصبح من فحول شعرائنا ، فقد كان مطبوعاً على النظم ، وكان منصرفا اليه بكليته ، وكان له كثير من المشجعين . لكن عمر حمد في حياته القصيرة ، لم يكن سوى شهاب سطع بغتة في سماء الشعر ثم هوى ، او زهرة ما تفتحت عن نضرتها حتى ذوت .

*

ولد عمر حمد في بيروت حوالى سنة ١٣١١ ﻫ . وجده السيد حمد ، مصريّ الاصل هاجر الى هذه البلاد في زمن الامير بشير الشهابي . وكان في الثامنة من عمره اذ ختم القرآن الكريم للمرة الرابعة متلمذاً للشيخ شاتيلا المشهور في هذا البلد . وتوفي والده

السيد مصطفى حمد قبل ان يجاوز الفقيد التاسعة من عمره ، فاضطر الى ترك المدرسة، واشتغل في السوق نحو اربع سنوات . ثم أدخل الكلية الاسلامية ، فتلقى فيها دروسه على اختلاف انواعها ، واخذ ينظم الشعر ، واكثر القصائد المجموعة في هذا الديوان هي مما القاه الفقيد في نادي تلك الكلية العزيزة . واني لأتمثل الآن عمر حمد رحمه الله ، واقفاً على المنبر ، يتغنى بمجد العرب الغابرين ويندب سوء حالهم الحاضر، مستحثاً العزائم ، مستفزاً الهمم ، فأتمثل الحماسة متجسدة في ذلك الفتى الاسمر ، الطويل القامة ، الجهوري الصوت.

وفي سنة ١٩١٢ م . أتم الفقيد دروسه في الكلية الاسلامية ونال شهادة « البكالوريا » فالقى في حفلة توزيع الشهادات عامئذ قصيدته القصصية « المروءة والوفاء » المنشورة في هذا الديوان . لكنه لم يترك المدرسة التي انجبته وقضى فيها سني صباه العذبة ، فقبلته معلماً للعربية وتاريخ الاسلام في القسم الاستعدادي ، وكان في الوقت نفسه يحرر في بعض الصحف المحلية .

ثم نشبت الحرب العامة ، فحملته عاصفتها الهوجاء الى دمشق ضابطاً احتياطياً ، فمكث فيها نحو ثلاثة اشهر. وكان الطاغية جمال باشا قد بدأ بتنفيذ مشروعه الدموي الذي يرمي الى القضاء على كل نزعة استقلالية في البلاد العربية قضاء مبرما ، والقى القبض على نفر من ابناء الوطن الاحرار وزجهم في سجن عاليه. وكان عبد الغني العريسي

والامير عارف الشهابي وعمر حمد ، رحمهم الله ، متيقنين ان دورهم آت لا بد منه ، ففروا من دمشق في بدء سنة ١٩١٥ مرتدين ثياب البدو ، سالكين سبل البادية العربية ، وظلوا شريدين طريدين نحو ثمانية اشهر حتى قبض الترك عليهم في مداين صالح ، اذ اوشكوا ان ينجوا بانفسهم ويبلغوا « ام القرى » مهد الثورة .

وقضى صاحب هذا الديوان في غيابة السجن نحو اربعة اشهر ، معذبا مضطهداً ، لكن نفسه الابية لم تهن ولم تَهُن ، ولا يزال من عرفه في ذلك الجحيم السياسي يذكر جرأته وصبره ورباطة جأشه وقوة ايمانه .

وفي السادس من ايار سنة ١٩١٦ جيء بالفقيد ورفاقه الى بيروت ثم قادتهم الزبانية الى ساحة الشهداء، فمشوا يهتفون للعرب ولاستقلالهم ويتغنون باناشيد الحماسة . وفاضت روح المرحوم عمر حمد بين ارواح صحبه الطاهرة على اعواد المشانق ، فكان ميتاً ابلغ منه حياً ، ولعل شهادة عمر حمد لاعلاء كلمة امته ، اشجى قصيدة ينظمها شاعر ، وأروع نشيد ترفعه الارض الى السماء ، رحمه الله رحمة واسعة .

١٩٢٨

الشاعر في السوق

الادب صناعــة . واذا كانت صنـاعة الادب تختلف عن سائر الصناعات من بعض الوجوه ، فهي تشبهها من وجوه أخرى : تشبهها من جهة ان محاصيلها ، ونعني «المصنوعات» الادبيــة لا بد ان تطرح للبيع في اسواقها الخاصة ، او بالاقل ان تعرض على الجمهور وتقدم اليه خالصة بلا مقابل ، اللهم الا رضاه وتحبيذه واستحسانه ، وليس هذا بالثمن البخس عند كثيرين .

هل تعرفون شاعراً يكد قريحته ليل نهار ، فينظم قصيدة عصماء فلا يهمه بعد ذلك الا ان يتغنى بابياتها في خلواته ، راضياً ناعم البال؟ او خطيباً يجهد ذهنه ساعات طوالا ، فيؤلف خطبة بليغة ، فلا يهمه بعـد ذلك الا ان يحملها معه في «الترام» الى ساحل «شوران» حيث يلقيهـا على تلك الامواج الزاخرة كالجماهير ، سعيد النفس باصطفاق الماء ، مستغنياً به عن تصفيق الايدي ؟ او كاتبـاً رواية يقضي الايام باحثاً متفكراً متخيلا ، فيدبج قصة ممتعة شائقة ، فلا يهمه بعد ذلك الا ان يمضي بدفتره الى غابة الصنوبر ليتلو على مسامع اشجارها و كل

اوراقها آذان ، ما كتب ، فيخيل اليه انها تتحرك طرباً ، او تبسط اغصانها لمصافحته ، او تقوم على ساقها من فرط الاعجاب به ؟

اذا كنتم تعرفون هذا الكاتب وذاك الخطيب وذلك الشاعر فدلوني عليهم . ولا تنسوا ان كل قصيدة عند ناظمها عصماء ، وكل خطبة عند صاحبها بليغة ، وكل قصة عند مؤلفها ممتعة شائقة ، والله اعلم .

*

كان لي صديق من الشعراء* كنت ادعوه «شاعري» ويدعوني «راويته» لانه ـــ رحمه الله ـــ كان اذا نظم القصيدة او بيتين منها لا يقر له قرار ولا يرتاح باله حتى يسمعني القصيدة او البيتين «أولاً بأول» قبل ان ينشدها في الحفلة او ينشرها في الصحيفة . وكثيراً ما كان يجيئني في ساعة متأخرة من الليل فيوقظني واهلي النيام ، بحجة ان «عليه بيضة» كما يقول العامة ، ويجب ان يبيضها . فكنت اقول له : حسن ! لقد «بيّضتها» ... تراك بخير !

وفي يوم من الايام تقدم نحوي كالمغضب مهرولا ، فقال لي دون سلام: اين انت؟ انا في طلبك منذ امس. انتهت القصيدة ولم اجدك... لم أجد واحداً من اخواننا ، كأنكم اختفيتم بين الارض والسماء . لقد ضقت ذرعا ... كدت اموت . هل تعلم ماذا صنعت ؟ لم اظفر

* عمر حمد .

في بيتنا الا بجدتي العجوز «على البركة» فانشدتها القصيدة من اولها الى آخرها دون شفقـة ، فكانت تهوّم عند كل بيت ورأسهـا على صدرها. ولكني لم اقطع الحديث الى النهاية. ثم سألتها رأيها : « كيف؟ يا جدتي . » فاجابت : « رُح ! الله يرضى عليـك » . ولكن ما لنـا ولهذا .. اسمع الآ ن .

وقد سمعت . سمعت وانا افكر في الحيزبون الجليلة التي لم تفهم من ذلك الكلام الا ان حفيدها « عالم ... يقرأ ويكتب » وفي ذلك الشاعر الخنذيذ الذي ينشد الجمهور ، ممثلاً في جدته الوسنى، قصيدته العصماء .

*

اذن فالادب صناعة مثل كل الصناعات، يتوجه اهلها الى الجمهور ابتغـاء مرضاته ويعرضون عليه « بضاعتهم » رجاء ان يتقبلهـا قبولا حسناً ، ان يقبل عليها ، ان تنفق في السوق. واذن فلا مناص للاديب — سواء الشاعر على انواع شعره ، ام الناثر على انواع نثره — من ان يعرف حاجة الجمهور وطلبه، ليكفي تلك الحاجة ويلبي هذا الطلب: ان للناموس الاقتصادي المشهور شأنه هنا .

ولكن اي جمهـور ؟ هل يوجد جمهور واحد ام جماهير مختلفة ؟ ان المسافة بين الذين لا يفهمون الا قصة «ابي زيد الهلالي» وامثالها ، وبين الذين تسمو نفوسهم الى «لزوميات» المعري واشباههـا — ان

المسافة بين هؤلاء واولئك لبعيدة ، جد بعيدة . وليس ادعى الى الضحك ولا ابلغ في الهجنة من ان نشهد «ابا زيد الهلالي» بحجة انه بطل صنديد ، وقرم عنيد ، ومدجج بالحديد ــ هاجماً على ابي العلاء الاعمى المسكين ، ولسان حاله يقول : « مت ! لا حاجة بنا اليك ! »

ولا احسب «ابا زيد» هذا ، مهما كثر عديده ، قادراً ذات يوم ، على قتل المعري ، كما ان المعري لن يوفق الى نسخ آية « ابي زيد » كل التوفيق . بيد ان الادب في كل امة وكل عصر يظل ، بين اهل اليمين واهل الشمال ، متجاذبا ــ كل يشد الى ناحيته ، ويعمل على شاكلته .

واذا كانت الآثار الادبية بضاعة معروضة في السوق ، معرضة لان تنفق او تكسد ، فليس من الواجب ان تكون باجمعها بضاعة مزجاة او رديئة ، وان تكن الرداءة في هذا «الصنف» على الاغلب ، شرطاً في رواجها او «عدم وقوفها» ، بلغة السوق ..

١٩٢٧

ساعة مع العاملي

كنت في مكتب احدى الصحف اذ دخل الاستاذ العاملي وعلى وجهه انوار البشاشة والهشاشة ، وظلال الجد والتفكير . فلما بسط الي يده مصافحاً ، احزنني انه يقبض ذراعه اليمنى «مكوّعاً» كأنه يشير بمرفقه الى ناحية ، او يتأهب لدفع صدمة . فقلت في سري : «لامرٍ ما ...» وتمثل لي حينئذ استاذنا الريحاني الذي نعرف جميعاً انه لا يقدر على بسط يمناه . ولست ادري كيف ذكرت ايضاً ان العاملي في الزمن الاخير استحدث توقيعاً خطياً «زنكياً» يذيل به احياناً قصائده المنشورة في الصحف والمجلات ، وهو على مثال توقيع للريحاني ايضاً ، خطي «زنكي» لكن هذا اقدم عهداً . وهممت بان اقول لنفسي : لعل انقباض الذراع اليمنى والتوقيع الخطي من قبيل توارد الافكار الشائع بين الشعراء ؟ ولكن الاستاذ العاملي قال ، وقوله الحق :

— هو «العصبي» بليت به اخيراً ... وليس الالم في الذراع فحسب ، بل في جنبي كله . اصبحت اذا كتبت اربعة اسطر احتاج

بعدها الى «هدنة».

ـــ هدنة من صراع شياطين الشعر ... شفاك الله يا استاذ!

وتناول حديثنا الادب والادباء، فطرحت سؤالا اجاب شاعر «الحماسيات» عليه بما يلي:

ـــ اني بدأتُ في نظم الشعر ولي من العمر ستة عشر ربيعاً. ويبلغ ما نظمته حتى اليوم نحو ٧٥٠٠ بيت في اربعة دواوين، اكثرها تحت الطبع.

ـــ اذن لو قسمنا هذا العدد على الايام ...

وفعلاً اخذنا القلم، فجمعنا وطرحنا وقسمنا، فاذا بالاستاذ العاملي قد نظم خلال سبعة عشر عاما، في كل يوم، بيتاً وربع بيت، وليس هذا بكثير. فما اضل اولئك الذين يأخذون عليه انه مكثر!

قال الاستاذ:

ـــ وعلى كل فان المكثر خير من المقل. هذا رأي ذكرته لبشارة الخوري.. لو اخذت الجيد من كثير الشاعر المكثر لكان اكثر من جيد الشاعر المقل ـــ بالطبع. هذه حقيقة حسابية في غاية البساطة والوضوح.

*

قضيت مع الاستاذ العاملي ساعة ملأى بالفوائد. وكنت اود لو يتسع المجال لنقل آرائه سواء في ادباء مصر وشعرائها ام في ادباء

سورية وشعرائها — آرائه كلها التي كان يبديها بكثير من الحرية الحميدة دون ان يخشى في الحق لومة لائم . ولكن اذا لم يتسع المجال لجميع تلك الآراء فلامناص من ذكر بعضها ليعم الانتفاع بها ، قال حفظه الله :

— استفتاء «الاحرار المصورة» في اكبر شعراء سورية ؟ سخافة واي سخافة ! لا رأيي ولا رأي احد من المعاصرين يقام له وزن . الحكم للمستقبل ! فقد تُطرح «حماسياتي» بعد مابة سنة في البحر ، وقد ينشدها الناطقون بالضاد ويتغنون بها بصوت واحد .. من يعلم ؟

— ولكن لو الححنا عليك بان تجيب على الاستفتاء — بالطبع بعد ان تخرج نفسك من الموضوع — فما تقول ؟

— انا لا ارشح نفسي ... المسألة بين خليل مطران وبشارة الخوري وآخرهما اقرب الى نفسي. اما اشعر المعاصرين على الاطلاق فشوقي . ولكن شوقي له عشر قصائد من طبقة عالية وبها افضله على الشعراء جميعاً ، على حين ان سائر شعره رديء كشعر...

.. وهنا أغفل اسماً ذكره الاستاذ العاملي ، لاني لا احب ان اكون حامل الحكم بالاعدام «الشعري» على فتى ربما كان وحيد ابويه ... أليس كذلك يا استاذ ؟

ثم قادنا الحديث ، والحديث شجون ، الى ذكر الحملات المنكرة التي كان الاستاذ العاملي يُفاجأ بها ، حيناً بعد حين ، في طائفة من

صحف البلد ، فقلت وانا اهم بامساك طرف الحديث :

ــ مثل هذه الحملات يدل عادة على احد امرين : اما ان يكون الرجل الذي يُحمل عليه عظيما ، واما ان يكون « لاشيء» يطمع في ان يعده الناس شيئاً ..

لكن الاستاذ لم يمكنني من اتمام كلمتي فقال :

ــ لو ان عشر معشار هــذه الحمـلات نزل بالسيد حليم دموس لخر صعقاً ..

ــ الحملات العنيفة ايها الاستاذ ، لا تكون الا على الحصون المنيعة .

ــ نعم ، لذلك ما كنت لابالي بها قط ، بل ان اول عمل آتيه اذا طعن في ــ اريد في شعري ــ احدهم ، هو ان اقــوم بواجب زيارته كأن لم يك بيننا شيء مطلقاً . والشيء بالشيء يذكر : لقـد قيـل لي انك نشرت منذ عامين في صحيفة « البيـان » مقالة بتوقيـع «المغربل» انتقدت نظمي بها...

ــ كلا ، فانا اوقع كل ما اكتبه باسمي ، ولست «المغربل» بل صديقه .

ــ ولكن هل قلت لك كلمة في هذا الصدد ؟ كن على يقـين ان ذلك لم يسوءني ... ألم اقل لك مرات : إني سازوورك ؟

وبينما كنت اجـل واكبر ، من غير كلام ، هذه الاريحية في

الاستاذ العاملي ، الواسع الذراع — كما يقول العرب — رغم انقباض ذراعه اليمنى بفصل العصبي المشئوم الذي لولا علمي انه لا يُعدي ، لقلت انه اخذه من «الريحاني» اذ سمعته يقول كلمة هي مسك الختام لهذا الحديث الممتع ، قال بصوت بعيد القرار :

— انك لا تعرفني جيداً . انا رجل «تعبت» فيه الطبيعة كثيراً .

ولقد اعجبني هذا القول من رجل يقول العارفون انه اعظم مرتجل للشعر في سورية ، لكن الطبيعة لم ترتجله ، على زعمه ارتجالا . ولله في خلقه شؤون .

١٩٢٦

الشعر والدراما

قالت العرب: من «ألف» فقد استهدف. وقال الزهاوي: اما رباعياتي فعددها الف رباعي

وآ اسفاه! لم يسعدني الحظ بالاطلاع على كتاب (اشراك الداما) للاستاذ الزهاوي وفيه كما قيل «جمع ٥٠٠ لعبة لغيره من المشاهير و ١٠٠ لعبة من مخترعاته واستنبط لتصوير هذه الالعاب طريقة بالارقام .. الخ». وآ اسفاه! لا لأني شديد الولوع بالداما فاطمح الى جعل الزهاوي في احدى طبقات اللاعبين وناصبي الاشراك، كما اني لا أطمع الآن بجعله في احدى طبقات الشعراء ومقيمي الاوزان، كلا .. وآ اسفاه! لاني كنت اذن اتيقن من صحة رأي يجول في ذهني، الساعة وقد طالعت رباعياته مقارناً اياها بالأثر الذي بقي في نفسي من مطالعة ما سبق له نشره من قصائد ودواوين في حينها. وهو (اي الرأي) ان خير ما صنفه الاستاذ وابقاه على الدهر هو هذا المخطوط في اشراك الداما، او هو خير (اقل ما يكون) من كل ما وفق الى طبعه حتى هذه الايام، لئلا

يقال انا نعدو الحد بالحكم على المجهول ، وان يكن ثمة افتراض معقول ان الصانع يعرض ، بل يقدم افضل مصنوعاته .

.. آه لا ! مائة شرك مخترع ليست بالشيء اليسير : كل شرك من المائة وليد جهد جهيد ، وسهد طويل ، واوجاع كاوجاع الوضع. ولتعظمن هذه المخترعات في عينك اذا ذكرت انها اتت بعد الخمسمائة — والفضل هنا للمتأخر — التي « عرفت » البشرية لاستنباطها خلال قرون متمطية بصلبها .

فالزهاوي ، لا مراء ، مدين لنا بكتاب ذي ابواب : في نشأة الداما وتاريخها ، وفي طبقات لاعبيها واهل الاختراع منهم ، وفي المفاضلة بين الداما والشطرنج مثلا : ايها افيد في فن تعبئة الجيوش واكفل للنصر في الحروب . ثم تكون خاتمته ، انشأ الله ، في « رأي تنازع البقاء فبقاء الاصلح » الذي لا يفتأ يراه الزهاوي ولا نفتأ نعثر عليه نحن في منظومه ، في صورته الدائمة الواحدة ، والذي نحسب انه اهتدى اليه — لكل شيء في دنيانا علة — من لعبة الداما وكم لعب جر الى جد ، لا من مذهب النشوء الدرويني عن طريق الرسائل الشميلية .

ليست الاشراك المئة المخترعة وحي الخاطر وثمرة الارتجال وبنت الساعة ، بل هي كما اسلفنا ، وليدة التفكير والاجتهاد والزمن . ولكن الزهاوي في الشعر ورباعياته نقيض الزهاوي في الداما

واشرا كما ،بطبيعة الحال ولضرورة الموضوع،هو في الشعر مكثر (قال له احد مناقضيه المصريين في مطلع قصيدة : اقلّ !) مرتجل فلا ينضج الشواء انضاجاً بل يلوحه تلويحا ، مستقل عن الزمان فلا يشاوره في امر ما يذهب جفاء وما يبقى لينفع الناس . واذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات . واذا كان للداما ان تخلد اسما فهي التي ستخلد اسمه : صاحب المئة اختراع بعد الخمسئة . وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع : وكان « ايضاً » ينظم الشعر ..

لاحد أئمة الادب (غوتي) الالماني كلمة جديرة بان تذكر هنا ، قال : « ليس الادب الا جزءاً من اجزاء • فانه لا يكتب مما صنع او قيل ، الا طرف يسير ، ثم لا يحفظ مما كتب الا طرف يسير ايضاً . »

ويقول صديقه الشاعر (شلر) : « بينما نحن نجهد انفسنا لنظم قصيدة لا بأس بها ، اذا بغوتي وليس عليه الا ان يهز بجزع الشجرة فتساقط على قدميه ثماراً جميلة يانعة . ويغلب ان تنشأ الاشعار في ذهنه من تلقاء ذاتها ولا دخل لارادته في ذلك ، بل رغم ارادته احيانا . ولقد نشأت طائفة من غرر قصائده تامة فلم تكلفه الا مؤنة كتابتها، ولكن منها ما نام اربعين او خمسين سنة في رحم ابكار معانيه ، اعني ذلك الدماغ الذي حمل بتراجيدية (فاوشت) الشعرية ما ينيف على

ستين عاما . »

هذا نموذج الشاعر الذي لم ينظم الا بدافع من القوة الباطنة ، والا بوحي من قلب غني سخي واحساس فياض وذهن قادر . هو لم ينظم لينظم بل كمن يضع عن كاهله حملا ثقيلا .

لذلك حق لنا العجب من ان عدد الرباعيات التي اتحفنا الزهاوي بها الف رباعي دون زيادة ولا نقصان ، وحق لنا أن نتساءل : لم لم تكن (٩٩٩) او (١٠٠١) بل كانت كاصناف البضاعة التي تخرجها المصانع حسب الطلب من الاحذية الى الامشاط ؟ البضاعةوالرباعيات الجاهزة ؟

لعل ذلك ليكون بينها وبين الفية ابن مالك وجه شبه . فاذا جاز لاستاذنا ان يفرض على نفسه نصب ماية شرك من مخترعاته في الداما فحرام ان يعامل الشعر معاملة الداما ، فيقيم وزن الف رباعي او يجندها طابوراً .. للموت .

لعمر الخيام شاعر الرباعيات الفارسي المشهور في الشرق والغرب نحو ١٤٠ رباعياً هي ما اثبت نقدة الافرنج انها من نظمه . فاذا كانت طبعات كلكتا وبومباي الاخيرة تتضمن نحو ٥٠٠ رباعي فقد نحل الخيام اذن ضعفي الاصل الذي له . وفي هذا دليل على سلطان الرباعيات الخيامية وعظيم أثرها في النفوس وعالي مقامها في دولة الادب . اما الان وقد ذهب عصر الانحال بقيام دولة الطباعة فلم

يعد من سبيل الى التساؤل كم تصبح رباعيات الزهاوي بعد كذا من القرون ؟ ولكن لو .. فهل كانت تزيد رباعياً واحداً ! نعم في قدرة صاحبها ان يزيدها آلافاً من هذا الطراز .

١٤٤ رباعياً خيامياً ، كل واحد منها جوهرة بتمام المعنى وجدته وكمال الاسلوب ودقته . فيها خلاصة حياة الخيام متبلورة كالماس : فكره النفاذ واحساسه الرقيق وعاطفته الحية ، وطبع غير متكلف وصدق لا يعرف الرياء . كان يهز اليه بجزع الشجرة فتساقط على قدميه ثماراً جميلة يانعة .

لو عاش الخيام في « عصر الزهاوي » لقال الاول للآخر : لا ، بالله عليك ! لا تقل في مقدمتك على هذه الرباعيات المتأخرة : وقد أخذت طرفا من الدساتير الاجتماعية لغوستاف لوبون متصرفا فيها تصرفا يقربه من النظم ، وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً . » بل لا « تأخذ » اجتماعيات .. ذلك العالم : اولا لان هذا يذكر الناس بنظامي علوم اللغة والطبيعيات والشرع في عصور الانحطاط اللفظية ، وثانياً لان الراغبين في اجتماعيات لوبون يرغبون عن (رباعياتنا) الى تصانيفه .. ولكن لا بأس ! في قولك: «وعدد هذا لا يتجاوز الثلاثين رباعياً » لهجة الاعتذار . واذن كان الخيام يقول للزهاوي اشياء كثيرة غيرها .

وبعد ، فلماذا اختار الزهاوي هذا النوع من انواع النظم او

هذه الصورة ، صورة الرباعي ؟ بالطبع لا للتنويع فحسب ، ولا لان صيت الخيام ملأ الافاق وحبه ملك القلوب . كلا ، فالرباعي في ذاته لا يكفي لحصول هذه النتيجة ، وما كان لصيت الخيام ان يفيء ظله في هاجرة النسيان على غير ما نظمه هو . فينبغي اذن ان يكون ثمة ما اغرى الزهاوي باختيار هذه الصورة او القالب الشعري ، فكيف كان ذلك ؟

الجواب في كلمة لاحد حكماء العصر الشعراء « نيتشه » الذي يقال انه اكبر شعراء الافكار تمييزاً لهم عن شعراء العواطف، والذي كان لاسباب صحية لا يصنف ، الا فيما ندر ، كتاباً متماسك الاجزاء الآخذة بعضها برقاب بعض ، بل كان يقيد آراءه واحداً واحداً بعد التفكير الطويل والنضوج الوافي ، في جمل موجزة لبابية يسمونها « افوريسم » او جوامع الكلم . لست اذكر ما قاله بنصه ولكنه يشبه هذه الكلم الجوامع بقمم الجبال ، قائلاً ان الجبار وحده قادر على سلوك اقصر طريق من قمة الى قمة ، بتخطي الوديان .

فيمكن الان القول ان نوع الرباعي في الشعر هو كالافوريسم في النثر وان الزهاوي اختاره ليودعه زبدة تفكيره وشعوره ، فتكون الرباعيات اعلى مظاهر التفكير والشعور ؟! اجل ، ومن هذا القبيل قوله في القطار :

مشى بنا فوق خطين ينهب الارض نهبا

وقوله في الكهرباء « اساس الحضارة » :

به التراسل فيه الشفاء منه الضياء

وقوله في « نسب » الشمس :

فانها ام دنيانا وابنة اللاتناهي

الى غير ذلك من التعاريف العلمية المفيدة وهي كثيرة .

اما التضمينات العجيبة النادرة فانك لا تكاد تقلب صفحة الا عثرت ببعضها : «ولكم في القصاص حياة • نظرة فلفتة فسلام • ما كل مرة تسلم الجرة » . وغاية الابداع في قوله « مضمناً » :

ان المدارس اما امتلأن تخلو السجون .

وفي قوله :

افعل بغيرك ما تريد ليفعلوا

بك مثله وكما تدين تدان

حجر اصاب به عصفورين: الآية الانجيلية والقاعدة الاسلامية . وما سوى ذلك آراء في .. كل شيء ، توفق الى مثلها المرحوم جدك الا انها في هذه الرباعيات خسرت لهجة الصدق والسذاجة ، دون ان تعاض عنها ، اللهم الا بالوزن .

لا حول ولا .. ها نحن هبطنا من قمم الجبال . ولكن لا بأس فقد عرفت في الوادي السبب في اني ما سمعت ولا تلوت يوماً قصيدة جديدة من نظم الزهاوي الا احسست احساساً غامضاً كانما سبق لي

سماعها او تلاوتها اكثر من مرة ، قبل هذه المرة .. حس لا يخدع عما هو جديد ، وعما هو مدع للتجديد .

اما التواضع فشاعر الرباعيات قدوة فيه ، قال :

ايها الحب كنت لي
قبلما كنت للبشر
قبلما كنت للكوا
كب والفجر والقمر

ومن هذا النوع قول مصطفى صادق الرافعي :

لو يسمى في الانام الحب ما اختار سوى اسمي

بينما (دوبورتوريش) الشاعر والتراجيدي الفرنسي الذي اجمع النقاد على انه من ابرع المعاصرين وصفاً للقلب الانساني في حالات الحب ، لا يقول « في الفخر » غير هذا البيت :

« عسى ان يكون لي اسم في تاريخ القلب ! »

اسم في تاريخ القلب او اسم في تاريخ الداما ؟
المهم ان يكون لك اسم في تاريخ « شيء » ..

١٩٢٤

بين شاعرين

١

سوللي برودوم و الياس فياض

اني كثير المطالعة قليل الكتابة . وقد أوتيت بسطة من العيش وكثيراً من الفراغ يسّرا لي الانصراف الى كتبي ودفاتري ، اقرأ وأقيد ما يعن لبالي ، وقلما اغفل شاردة او واردة لاعتقادي انها تفيد يوما من الايام.ولو شئت الان ان اعيد النظر في حياتي الماضية واحصي ما مر علي من حوادث جديرة بالذكر ، كي اكتب سيرتي بنفسي ، لاستطعت دون عناء ، اختصارها في هذه الجملة الجامعة « مطالعات في زاوية بيت » فان الكتب التي طالعتها هي اعظم حوادث حياتي .

كذلك لست اعرف واحداً من ادبائنا « المعروفين » معرفة شخصية ، غير محاول التعرف اليهم ، مكتفياً بقراءة ما يكتبون وما يكتب عنهم ، متصوراً «ذاتياتهم» المادية والمعنوية من خلال كتاباتهم

و كتابات النقاد عنهم . وبقدر ما تكون كتابات الادباء شفافة صادقة تكون تصوراتي واضحة ، ولكن هذا نادر لان اغلبهم يطرحون بينهم وبين القراء ، بغلبة الصنعة والتقليد على شعرهم ونثرهم حجاباً كثيفاً . واني لاجد في تصور كتابنا وشعرائنا المعاصرين على هذه الكيفية ، لذة تذكرني بما كنت اجد من لذة وانا حدث السن ، في حل الالغاز والاحاجي الرائجة بين النشء . بيد أني لم احاول مرة ان اجرب صدق فراستي فاتعرف الى فلان الشاعر مثلاً، لاقارن بين صورته في ذهني وصورته في حقيقته ، لسببين : اولهما الكسل عن معاشرة الناس لاسيما طائفة الادباء منهم ، وثانيهما الخوف من ان افجع بصور لي في خلقها اكبر نصيب. وقد يكون ثمة اسباب اخرى لا اتبينها الان .

زرت مصر منذ نحو عشرين سنة فسمعت حافظ ابراهيم يلقي في احدى الحفلات قصيدة لشاعرمشهور لا أذكر أهو شوقي ام اسماعيل صبري ام غيرهما . فاحدثت لهجته في نفسي أثراً بليغاً وبقيت زمناً طويلا لا اقرأ «بعيني» شعراً الا كان يخيل الي اني اسمع لهجة حافظ كأنما نبرات صوته ترن في انحاء نفسي . فكانت صورة حافظ تخالط في ذهني صور الشعراء الذين اقرأ لهم فتكدرصفاء تصوري ، كالاخيلة التي يراها الحالم في رؤياه ولا يفلح في ابعادها الا اذا استيقظ ، بل قد يبقى شيء منها حتى بعد اليقظة ، حيناً قليلا ثم تضمحل .واخيراً

انستني الايام لهجة حافظ وصورته فكنت كمن افاق من حلم مزعج فاذا اعضاؤه سليمة ، وحياته في امان، ولا اشباح تعذبه مكشرة عن

... مسنونة زرقٍ كانياب اغوال .

اني اذن منذ سنين طويلة منصرف الى مطالعة الكتب في زاوية بيتي . وقد اتت علي اعوام لم اقرأ في خلالها الا دواوين الشعر من عربية وافرنجية ، قديمة وحديثة . فاولعت زمناً بالمقارنة والمقابلة بين الشعراء ، لاكتشاف اوجه الشبه او الاختلاف بينهم ، مغتبطاً كلما وفقت في مسعاي اغتباط الرحالة الذي يستكشف مجاهل الارضين والبحار . ويظهر انه كان لي شيطان يلهمني ويسدد خطواتي ، والا فكيف قرأت في وقت معاً ديوان الشاعر العصري الياس بك فياض وديواناً صغيراً للشاعر الفرنسي (سوللي برودوم) يتضمن قصيدة عنوانها (المجرة) تشبه قصيدة (النجوم) لشاعرنا العربي شبهاً عجيباً ؟

الياس فياض شاعر مطبوع رقيق . وليس بضاره انه مقل، فلعل له في اقلاله عذراً ، او لعل ذنبه الكسل ، او لعله نظم كثيراً في شبابه ثم ناله شيء من العياء (ولا اقول : العي) فاحب ان يأخذ لنفسه شيئاً من الراحة ، كالمسافر الذي قطع مسافة طويلة. عني كثيراً بالترجمة عن الفرنسية لاسيما ترجمة القصص التمثيلية . وعرب ايضاً بعض القصائد مثل (سقوط الاوراق) للشاعر الفرنسي (مللفوا) و (اذ كريني) لالفرد دو موسه و ، (النسيم العاشق) التي اخذها من

قصة تمثيلية شعرية اسمها Les Bouffons ويدعى صاحبها ميكال زاما كوبي وتعريبه هذه القصائد حسن ، رغم ما يعانيه المترجم ، على الاخص اذا اراد ان يترجم الشعر الفرنسي في شعر عربي مبين.

اذكر ان الاستاذ فياض نشر منذ بضعة اشهر في صحيفة المعرض مقالة ممتعة طلية انتقد بها قصيدة من نظم محمد كامل شعيب العاملي وهي قصيدة فلسفية او علمية او آلهية ، يقول صاحبها فيها اشياء عن النجوم ؟! او كان الاستاذ فياض مصيباً في نقده ذاك الاصابة كلها ، لكنه قابل في مقالته الانتقادية بين ابيات العاملي وابيات لشاعر لم يذكر اسمه ، وان يكن اغلب القراء عرفوا انه الياس فياض نفسه صاحب قصيدة النجوم المشهورة ، المنشورة في ديوانه .

ان قصيدة النجوم ، لالياس بك فياض ، هي قصيدة المجرة La voie Lactée لسولي برودوم . ولا ادري لماذا لم يذكر الشاعر العربي انها منقولة عن اصل فرنسي ، كما ذكر انه نقل تلك القصائد الثلاث المعروفة : سقوط الاوراق ، واذكري ، والنسيم العاشق . ألأنه لم يراع الاصل في الترجمة مراعاة تامة ، أم لانه حور آخرها تحويراً طفيفاً ؟ وعلى كل فان تلك «الخلقة» الفرنجية لم تتنكر في حلتها العربية تنكراً يضيع عنا حقيقتها : قد عرفناها وهل يخفى القمر ؟

واليكم قصيدة المجرة ترجمتها نثراً عن الفرنسية متقيداً بالاصل

غاية جهدي ، وبأزائها قصيدة النجوم كما نظمها الياس بك فياض باسلوبه الرائق :

المجرة

[للشاعر الفرنسي سوللي برودوم]

قلت للنجوم ذات مساء :
لا اخالك سعيدة ،
ان لانوارك في اللانهاية السوداء
حنيناً شجياً .

فكأني ابصر في السماء
جنازة بيضاء يتقدمها عذارى
يحملن شموعاً لا تحصى
ويتبع بعضهن بعضاً بفتور .

أأنت ابداً في صلاة ؟
ام انت كواكب جريحة ؟
ان هذا الذي تريقينه
لدموع من ضياء لا اشعة .

النجوم

[لالياس بك فياض]

قلت للنيرات ذات مساء:
أترى انت مثلنا في شقاء ؟
ساهرات الجفون — هل لفراق؟
خافقات الضلوع — هل للقاء ؟
هائمات مع المجرة تجريـ
ن الى غير غاية او رجاء ،
مثل سرب من المهاءظامئات
حول ماء يمنعن ورد الماء ،
او عذارى من حول نعش حيارى
في صلاة ما تنقضي ودعاء .
ان في لحظك الشجي حنيناً
نافذاً سهمه الى احشائي .
وارى نورك الضئيل كدمع
سائل من محاجر بيضاء .
اثغور كئيبة ام جراح

انت النجوم ، جدة
الخلائق والالهة ،
أأنت تبكين ؟
اجابت : نحن في عزلة ..

كل واحدة منا بعيدة جداً
عن اخواتها وان خلتها قريبة !
ونورها اللطيف الضئيل
لا شاهد له في موطنها .

وهكذا فان توقد اشعتها
يضمحل في سماوات لا تبالي.
قلت لها: قد فهمت ما تقولين ،
فانكن تشبهن الانفس .

كذلك هي : كل نفس تضيء
بعيدة عن اخوات تخالهن على
كثب منها ،
وهذه الخالدة في عزلة ،
تحترق صامتة ، في الظلام ..

انت في اللانهاية السوداء ؟
انت ياجدة الخلائق، ام الد
هر ، يا ربة الهدى والضياء !
انت تبكين يا نجـوم ؟ اجابت :
نحن في عزلة بهذا الفضاء :
بيننا الهجر من قديم فلا يغ
ررك منا تقارب الاضواء.
كل نجم منا يعيش بعيداً
عن اخيه في وحشة وجفاء ،
محرقاً نفسه بغير انتفاع ،
ذاهباً نوره سدى في السماء .
قد فهمت الذي تقولين ياشه
ب فانتن انفس الشعراء :
هكذا نورها يضيع بافق
نزلت منه منزل الغرباء ،
لا ترى الانفس القريبة منها
ما بها من توقد وذكاء ،

فتنير الظلام حيناً وتمضي
في ثياب الخلود نحو الفناء ..

هذان هما الاصل الفرنسي والاقتباس العربي ، ولا أحسب القاريء واجداً لذة في قراءة ترجمتي المنثورة الا هو واجد اضعافها في قراءة الاقتباس العربي المنظوم . ولكنه يحسن كذلك صنعاً اذا اخذ في مقابلة القصيدتين ، فرأى كيف يقدم الاستاذ فياض ويؤخر ، وكيف يختصر المعاني احياناً واحياناً يفصلها ، وكيف يجتهد لابراز تلك الصور الفرنجية في حلة عربية ، وان وفق وان لم يسعده التوفيق أدع ذلك لغواة الشعر من القراء ، ولا يخفى ما فيه من اللذة والفائدة على السواء .

ان الاستاذ فياض ، لما قابل في نقده العاملي ، بين ابيات هذا الفاضل وابيات الشاعر الذي لم يذكر اسمه والذي حسبه الناس يومئذ الاستاذ فياض نفسه لان الابيات من قصيدة منشورة في ديوانه — نقول : لعله لم يذكر اسم الشاعر يومذاك لانه « تذكر » فجأة ان قصيدة النجوم هي في الحقيقة قصيدة المجرة .

ولكن الشاعر الفرنسي برودوم يتكلم في قصيدته عن الارواح او الانفس ، عن ارواح بني آدم جميعاً ولا يخص اناساً دون آخرين . فلمَ حصر الاستاذ فياض المسألة في طائفة واحدة من الناس هي طائفة الشعراء ؟ ألأن الشعراء وحدهم ذوو ارواح وانفس ، ام لأنهم اصحاب وجدان ؟

«دمشق»

٢

كتاب مفتوح

سيدي الاستاذ الريحاني حفظه الله

اذا كان شيخكم شيخ الفلاسفة افلاطون ، اخرج من جمهوريته الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، وفي كل واد يهيمون ، فلماذا عصيتم امره؟ ألا ترون ياسيدي وأيه انهم يعيثون في المجتمع وفي اخلاق الناس فساداً ؟ اقول ذلك لان الشعراء ما كادوا يبلغون في هيامهم الطويل واديكم ، وادي الفريكة ، الا كنتم الى لقائهم خفافا ، فاحسنتم وفادتهم وانزلتموهم على الرحب والسعة ، كأنكم تريدون تطييب خاطرهم فينسوا آلام النفي الجائر الذي حكمت به عليهم منذ اجيال وقرون ، الحكمة — لا المحكمة — حكمة الامام افلاطون عفا الله عنه .

ومن قبل يا سيدي اكرمتم المعري اذ ترجمتم شعره في الانكليزية رباعيات ، فزعم بعض المحبين — وهم كثر — ان الترجمة افضل من الاصل العربي . ولكني اجد عناء كبيراً في تصديق هذا الزعم ، لاني احب المعري في عروبته كما هو ، حباً جماً واعجب به اعجاباً لا حد له . ولعمري هل يستطيع مترجم مهما يكن مجيداً — وان يكن

الريحـاني ــ ان يترجم في لغة اجنبيـة شعر الشاعر العبقري ، فتأتي هذه الترجمة خيراً من الاصل ؟ وعلى كل فاني لارجو ان يكون المعري ، يوم نشرت رباعياتكم الانكليزية . قد حملت اليه نسخة منها في ظلال الجنة التي وعد المتقون ، فخف الى «ملتون» يقرءه اياهـا ، ثم جلسا يتعا كظان .

اقول : في الجنة . اجل ، فالجنة ليست بمشيئة الله كجمهورية افلاطون خلاء من الشعراء . بل اذا كان هؤلاء الذين يقضون عمرهم متوجعين من حياتهم الدنيا،شاخصي البصر متطلعين الى جنات النعيم حتى اذا لمحوها لحاً،او هبت عليهم منها نفحة عادوا الى انفسهم يجهدونها ليصوروا للناس ما رأوا ، وليودعوا شعرهم تلك النفحـة العلوية ـــ اذا كان هؤلاء لا يفوزون بالجنة فمن الفـائزون ؟ وتالله ان لم يكن الشعراء في الجنة فاين يكونون ؟ ألا ترون يا سيدي الريحاني انه ليس من الحكمة جعلهم في دركات الجحيم ، لئلا يفسدوا على الموكل بعذاب الاشقياء عمله ، فيسلوا المعذبين عما هم فيه من العذاب ، كما يسلون البشر في هذه الدنيا ؟

*

لنعد الان ، اذا اذنتم ، الى حبكم الشعر والشعراء رغم انف افلاطون ، صاحب تلك الجمهورية الحزينة . قلت انكم اكرمتم المعري من قبـل ، واقول انكم تكرمون الياس بك فياض من بعد ، او

تحسبون انكم تكرمونه فاذا انتم في الحقيقة تكرمون الشاعر الفرنسي سوللي برودوم. ولا ادري لمن الذنب في هذا، بل يخيل الي ان الذنب لشيطاني انا. واليكم القصة:

كتبت منذ اسبوعين في هذا (النديم) المؤنس مقالة قابلت فيها بين قصيدة (المجرة) البرودومية وبين ترجمتها (النجوم) الفياضية. وقلت يومئذ ان لي شيطاناً يلهمني في المقارنة او المقابلة بين الشعراء، ويسدد خطواتي، والا فكيف قرأت معاً ديوان الشاعر العربي فياض وديوان الشاعر الفرنسي برودوم؟ ويلوح لي ان هذاالشيطان بينما كنت اكتب مقالتي تلك، سول لكم ان تجلسوا حول طاولة المدام، على رواية مجلة «مينرفا» في جزئها الاخير، فتذكروا الشعر والشعراء والمتشاعرين، فينشدكم الاستاذ فياض قصيدته «النجوم» فتفعل القصيدة في نفوسكم، ويحملكم الاعجاب بمعانيها ومبانيها على ان تهتفوا: «الله! الله! هذا شعر خالد. هذا شعر الامم.» ثم تبرعتم يا سيدي الريحاني بنقلها الى الانكليزية، او اقترح عليكم ذلك، ولا فرق فالمهم انكم فعلتم: ترجمتم قصيدة «النجوم» العربية في لغة شكسبير.

ولماذا؟ بالطبع لا ليقرأ هذه الترجمة الجيدة في مجلة مينرفا، قراؤها من الناطقين بالضاد، كما انكم لم تقتبسوا بعض لزوميات المعري وتودعوها رباعياتكم الانكليزية لاتمتع انا بمطالعتها. لقد اردتم في

كلتا الحالين ان تظهروا الافرنج على آدابنا بنقل طائفة من نماذجها العالية .

ولكن .. أرأيتم يا سيدي ، لو ان شيطاني نشر غداً او بعد غد ، في احدى المجلات الامريكية التي تزدان بمقالاتكم ، بعد مقدمة وجيزة يطري فيها الادب العربي في هذا العصر ويذكر فضل الاستاذ فياض عليه .. اجل ، لو ان شيطاني نشر قصيدة النجوم بالعنوان الآتي :

The Stars
By Elias Fayad
Translated by Ameen Rihani

على نحو ما فعلت «ميترفا» ، ثم اخذ المجلة فتى امريكي يطلب العلم في كلية الاداب بباريس ويشتغل في اطروحة — كما يقول صديقي المجمع العلمي العربي — موضوعها : « الرأي الفلسفي في شعر سوللي برودوم» او «سوللي بردوم والمذهب البرناسي» لينال باطروحته شهادة الدكترة في الاداب ، فوقع نظر صاحبكم على « نجومنا » فقرأها فذكر انه قرأ شيئاً من هذا القبيل في غير هذا الموضع ، ثم ذكر اخيراً انها «مجرة» شاعره سوللي برودوم ... أرأيتم يا سيدي الريحاني لو ان القصة تختم بقول الفتى الامريكي وهو يضحك :

— ولكن .. ولكن . . هذه بضاعتنا ردت الينا !

*

اذن ، لقد هتفتم يا سيدي ليلتئذ : « هذا شعر خالد . هذا شعر

الامم ! » اما انه شعر الامم ، فلا عجب : قصيدة افرنجية التصور والاحساس والتفكير ، اشترك في وضعها قلبٌ غربي ودماغه .
ولكنكم تغفرون لي جرأتي اذا قلت ان اكثر اعجابكم بها ناتج عن ان هذا النوع من الشعر نادر في ادبنا العربي بل يكاد يكون معدوما، والا فان للشاعر الفرنسي سوللي برودوم في دواوينه الشعرية العشرة مئات من القصائد تماثل قصيدة المجرة او النجوم وتفضلها ، وليس سوللي برودوم في الطبقة الاولى ولا الثانية بين شعراء الفرنسيس .
كان امام البرناس وهو مذهب في الشعر تقوم دعوة اهله على تجويد المبنى ولا مذهب لهم سواه ، وكان في حياته ذائع الشهرة ، وكانت كتبه متداولة ، لكنه بعد سنة ١٨٨٨ ترك نظم الشعر ، ورغم انه توفي سنة ١٩٠٧ اي من عهد غير بعيد ، فلا يقرأ الناس اليوم شعره كثيراً ، ما خلا بضع قصائد يجدها الطلاب في كتب المختارات الشعرية ، واحدى هذه القصائد ، اذا لم اكن مخطئاً ، قصيدة «الاناء المكسور » التي عربها بشارة الخوري .

وعلى كل فاني لارجو ان تكونوا صادقين في تنبؤكم عن هذا الشعر ، فيكون خالداً باذن الله ، لا لاني اضن بدواوين سوللي برودوم ان تعصف بها ريح الزمان فتذريها كورق الخريف ، كلا فان للشاعر الفرنسي رباً يحميه او يتخلى عنه — هو وشأنه . بل ارجو ان تصدق نبوءتكم لانكم تكلفتم شيئاً من العناء ، وحملتم مؤونة

هذه الغريبة الدار : القصيدة الافرنجية المعربة ، فنزعتم عنها الحلة الموشاة التي كان خلعها الاستاذ فياض ، ثم اعدتموها في زيها الاصلي لتردوها الى اهلها ، كما ترد الامانات ، سالمة غانمة ، ولكن متغيرة بعض الشيء بفعل المناخ ، عافاها الله . واذا كان نفر من الناطقين بالضاد قد الفوا هذه الغادة الفرنسية التي قضت في ربوعهم نحو اربعة عشر وبيعاً ، وشغفوا بمحاسنها الغريبة حباً ، فلا بأس ان يودعوها بدمعة . قولوا لهم معي يا سيدي الريحاني :

— عزاء يا اخواننا ! لا بد من ان يرجع الشيء الى اصله ، مهما يطل العهد ويبعد المزار . واذا كان مكتوبا لهذه الغادة الحسناء ان تهرم ويذهب جمالها ، فخير لنا ولها ان تكون عند اهلها ، فان هؤلاء احق بإيوائها يوم لا تصلح لشيء .

*

ما العمل يا سيدي ؟ لقد كانت النية ، اذ اردتم اطلاع الغرب على نموذج حسن من ادبنا العصري ، حسنة صالحة . فاذا لم توفق النية هذه المرة فلان شيطاني افسد عملها المشكور ، قاتله الله وحفظكم الله !

وفي الختام يسألكم الصفح الجميل امرؤ اراد ان يتشرف بالكتابة اليكم ، فاذا بمئات من قراء (النديم) حول منضدته يقرأون من غير استحياء ما يكتب — اذ هذا هو الكتاب المفتوح على ما يظهر —

والسلام عليكم من معجب بكم وبفياض ، بل بكل نزعة مباركة الى التجديد في عالمنا العربي .

الصالحيه في ١ مايس سنة ١٩٢٧

«دمشق»

يوسف غصوب

١

القفص المهجور

يقول « ريمي دو غورمون » من نقدة الفرنسيس : « كل تبديل يطرأ على أدب امة من الامم ، فلا بد ان يكون ناشئاً عن علة خارجية » او اجنبية .

بهذا الرأي الحصيف احب ان استهل كلمتي الوجيزة في المجموعة التي يتحف بها يوسف غصوب ادبنا العصري . ولا ينكر ان الذين يلقّبون (او يلقبون انفسهم ، او يلقب بعضهم بعضاً) بالمجددين هم رهط من الادباء تأثروا بالآداب الغربية تأثراً بليغاً (او غير بليغ) ذلك هو الواقع الذي لا محيص عنه . ولا ينكر ايضاً ان الخلاف بين هؤلاء وبين خصومهم (ويدعون بالمحافظين ، او بالمقلدين اذا اريد الزراية عليهم) يقوم على هذه المسألة : هل تورث الآداب الغربية الادب العربي غنى ونماء وجدة ، ام انها تدخل عليه الفوضى ،

وتسمه بالرطانة ، وتشوه محاسنه ؟

فاما ان يصم دعاة التجديد (او ادعياؤه) خصومهم بالتقليد ، لتأثرهم بالادب العربي التليد — فهو حق وصدق . وللمحافظين بعد ذلك ان يقذفوا المجددين بهذه الكرة نفسها ، لتأثرهم بالآداب الغربية الطريفة — فهو عدل وصواب . ونحمد الله على ان الكرة لن تصيب من هؤلاء ولا من اولئك مقتلا ، والا بطل اللعب وخلا الميدان . لكن بين المجددين والمحافظين في تقليدهم جميعاً ، هذا الفرق الظاهر وهو ان هؤلاء يأتوننا بنماذج متشابهة من امثلة معروفة مألوفة ، في حين ان اولئك يأتوننا على الاغلب بنماذج طريفة من امثلة غير معروفة ولا مألوفة . وليس كل ما يتحفنا به المجددون من امثلة غير معروفة « منكراً » .

*

لقد بنى « دوغورمون » رأيه الذى ذكرنا على شواهد صحيحة من تاريخ الادب الفرنسي . وفي اوربة اليوم علم قائم بذاته يسمونه « تاريخ الآداب بالمقابلة » موضوعه التأثيرات التي تقايضتها الآداب الانسانية في مختلف الازمنة (من هذا التاريخ فصل ضاف في انفعال آداب الغرب بالآداب الشرقية عامة ، والادب العربي خاصة . وقد نجد شيئا من هذا القبيل في تاريخ ادبنا : العصر العباسي — الاغريقي الفارسي ، مثلا) .

فاذن الادب العربي بين امرين لا ثالث لهما : اما ان يظل محافظاً يحيا بمادته ، متأكلا مجتراً ، ويعيد ذاته كرجع الصدى ، ويتقمص رجاله بعضهم بعضاً ، واما .. بل ثمة امر واحد ليس لاحد في دفعه يدان ، نعني التبديل الطارئ على ادبنا الحديث ، بفعل عناصر خارجية اجنبية : ليس الادب العربي جزيرة في عرض الاوقيانوس - تنتظر كولمبوس ، ولا روحنا صخرة تنحطم عليها هذه الثقافات الغربية الجائحة الفاتحة ، الهائجة المائجة . واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها ، فاين نجعل ادبنا كي لا يناله تبديل ؟ هو هذا الطوفان ، و « لا عاصم اليوم » !

*

يوسف غصوب احد شعراء العصر الذين تأدبوا باداب الفرنجة واقتبسوا من ثقافتهم . وان القراء ليجدون في مجموعته هذه آثاراً واضحة جلية من تلك الاداب والثقافة . فقصيدة « الانتظار » مثلا تذكرنا احد قصائد « الفرد دو موسه » الاربع المشهورات ، اعني « ليلة اكتوبر » التي يصف فيها الشاعر المدنف آلام نفسه ولواذع غيرته ، وهو ينتظر حبيبته « الفاجرة » طوال ليلة من ليالي الخريف حتى اذا وافته ضحى ، خاطبها بمثل قول شاعرنا العربي :

بينما مهجتي تذوب انتظاراً
هي في خمرة وفي اوتار

ترشف اللهو في ذراعي حبيب
ضم من جسمها شرارة نار ..

ولله ما اقرب الشبه بين امنية يتمناها يوسف غصوب في قوله :

هذه غاية الاماني ! هلا
رقدة في ظلالها بسلام
تتلاشى نفوسنا في هدوء
دون ما حسرة ولا آلام
مثلما تفقد الزهور شذاها
حائنات في جنة الاحلام

وبين مثل هذه الامنية للشاعر الفرنسي Albert Samaint القائل :

Oh ! s'en aller sans violence
S'évanouir sans qu'on y pense
D'une suprême dèfaillance . . . .
Silence . . Silence . . Silence . .

ليست هده المنات مما يحمل على الظن بان يوسف غصوب قد احتذى عن روية تلك المثل الشعرية ، او انه يحتذي اي مثل غيرها ، سواء من ادب العرب ام من ادب الفرنسيس . واحسب ان لا داعي الى القول اني عرفته شاعراً مطبوعا تربأ به كرامته و كرامة الشعر عنده ، عن تقليد الاولين والاخرين ، بل عن مجاراة الشعراء الذين

يحبهم حباً جماً ويعجب بهم اعجابا لا حد له . كذلك فان تأثره بالادب الغربي ابلغ من ان يقصر على هذه الظواهر ، واعم من ان يحصر في حادثات مفردة .

من آثار الادب الغربي في شعر يوسف غصوب هذه الوحدة ، معنى ومبنى ، التي يجدها القارىء في مجموعته القفص المهجور (وليست الوحدة مما يباهي به الادب العربي آداب الامم الاخرى) حتى ليصح القول انها قصيدة واحدة . وفي هذه القصيدة قصة نفس قلقة موحشة في حياة غير موآتية ولا راضية ، تحس نقص الحياة وعدم موآتاتها احساساً موجعاً اليما ، فهي تفر من هذه الدنيا المملة المحزنة ، لائذة بجنة الاحلام ، حيث الهناء المقيم والراحة الشاملة . وهي لعمري قصة النفس الانسانية على اطلاقها ، من البداية الى النهاية ، تقصها علينا الاديان تارة والفنون تارة اخرى — النفس الانسانية التي لا تفتأ تنقل ظمأها الى النعيم ، من سراب الى سراب لا تروى ولا تبرد غلتها ، حتى تقع على السراب الاعظم .. جزى الله الانبياء والشعراء عن البشرية كل خير ، فهم المعزون بصور الكمال ، في الدنيا وفي الآخرة . ولهذا نقول ان لشعر يوسف غصوب دلالة انسانية بليغة عامة ، وهي اول مزايا الشعر وسائر الفنون .

*

من الالفاظ الشائعة عند الفرنسيس : « شقيقة النفس

âme-sœur » وهم يعنون بها ما يقوله الشاعر في قصيدتـه « وحشة القلب » :

برأ الله انفس الناس ازواجا تداعى ، فكل نفس لنفس ..

ولقد كنت احسب هذا الاصطلاح غريباً على اللغة العربية ، حتى قرأت قول ابي نواس (او قول والبة ابن الحباب لابي نواس في رواية) :

يا شقيق النفس من حكم
نمت عن ليـلي ولم انم

بل اعجب من هذا قول ابي نواس ايضاً في موضع آخر :

وشقيقه النفس التي حجبت
عن ناظريك ...

فهو يمثل ما نحن بصدده اجـود تمثيـل ، لولا انه عنى الخمر . ولكن هل الحب والخمر والايمان الا سبل متفرقة ، يسلكهـا الناس الى غاية واحدة : النعيم ؟

ولا بد هنا من القول ان تلك الاثار من الاداب والثقافة الغربية التي يجدها القارئ في شعر يوسف غصوب ليست بضائرة اسلوبه في شيء ، فهو اسلوب عربي مبين ، لا سمة للعجمة عليه . ولقـد وفق هذا الشاعر الى حسن الملاءمة بين معانيه ومبانيـه (ليس حسبنا ان يكون ثمة انسجام في الالفاظ وانسجام في المعاني ، بل ينبغي ايضـا

ان يكون الانسجام بين المعاني والمباني). زد على ذلك ان له حظاً من الموسيقى اللفظية غير يسير يهيء نفس السامع ويجعله في « الحالة الشعرية » الخاصة ، وانه مقتصد في الكلام يومئ على الاغلب ايماء لطيفاً ويوحي وحياً خفيا ، لكن لهذا الوحي في جوانب النفس اصداء شتى بعيدة القرار .

*

هـذا .. وبعـد فان (القفص المهجور) حادث ادبي ذو شأن : زهرة نضرة في هذه الايام الجديبة ، في بيداء حياتنا الادبية ،وزهرة واحدة — في عالم الشعر — تكفي لان تملأ البادية ارجا طيبا ، وحسناً فاتنا ، وحياة بهيجة . ان في هذا الديوان الفريد لعزاء لنا عن كثير من رزايانا ، لا سيما تلك القصائد والدواوين ، التي (نُطعن) بها كل حين ، وللشعرُ اول المرزوئين ، اجارنا الله واياه — آمين .

٢

المأدبة

لا مأدبة افلاطون اعني ، ولا المأدبة التي ادبها ليوسف غصوب منذ بضعة ايام اخوانه الادباء — كدت اقول : الآدبون — ولم يدر فيها حوار سقراطي ، لان سقراطها ما كان . انا اعني ، بعد « القفص المهجور » هذه « الموسجة الملتهبة » التي طلعت علينا كعروس شقراء ، كما جلتها يد الماشطة ، بل الطابعة.

أليس من فضل الله علينا ان يأتينا يوسف غصوب داعياً ، كرة بعد كرة ، الى احدى المآدب الملكية التي يأدبها الشعر لابنائه — صفوة الخلق ، والتي لا تعدل لذاتها عندي لذة ما بلغت ، في هذه الحياة الدنيا . فاذا على تلك المائدة السنية كل فاخر وطريف ، وكل شهي مستملح ، وكل حسن معجب . كيف لا ؟ وهذه الالوان النفيسة من طعام وشراب ، وازهار وانوار ، وآنية — اقسم انها لما أعده جن عبقر لتطوف علينا به ملائكة الجنان ، بقضاء من مالك السموات والارضين .

وقديماً كنت اتعاطى مع الشعراء الشعر كما يتعاطى الندامى المدام ، فلا اتعدى في ثملي حدود الوقار . بل وقع لي مرة او مرتين

ان اخذ مني السكر حتى خرجت الى السوق متغنياً بقصائد شاعري المختار ، معربداً . ولكني على الاغلب كنت امكث في مجلسي كالمشدوه ، في عينيه رؤى السحر من ذلك العالم الآخر .

وبين عشية وضحاها سولت لي النفس الامارة تجارب سوء في النظم ، فسقطت في حمأة الخطيئة ، اذ نظمت ، ولا فخر ، قصائد مطوية منسية ، بل « ارتكبت » وهو الاصح ، بعض ابيات دارسة طامسة . ثم لم البث ، لحسن الطالع ، ان تبت توبة نصوحاً ، فكنت كعاصر الخمر الذي ما كاد يختم زجاجته ليقربها قرباناً على انها « لذة للشاربين » حتى كتب عليها : «خل» والقاها في زاوية المطبخ .

ولقد كنت قبل عهدي بالنظم فتى كالفتيان ، مولعاً باعمال المجد والفروسية ، لم تواته احوال الدنيا ليكشف عن سريرته بعمل مجيد او مأثرة غراء في احدى نواحي الحياة . فلما لم يجد صبراً على لجاج هذه الحاجة الملحاح،عكف على قراءة سير الابطال وقصص الفرسان خداعا لنفسه وتمويهاً عليها ، بغير غاراته الشعواء في عالم الخيال . واستمر على ذلك زمناً ، حتى جمعته الاقدار « بدون كيخوتي» الذي خرج من قريته شاكي السلاح ، مغامراً مفاخراً ، فلما لم يلق من يجاوله ويناضله ويقاتله اغار على طاحون الهواء — وكفى الله المؤمنين القتال ... ولست اذكر هل اسعد الحظ « دون كيخوتي » في حياته ، او في حكايته ، بفارس مغوار يعمل في جثمانه الحق لا

الباطل ، سيفه او رمحه طعناً وضربا ، لكنه بعد موته بقرون ، ظفر في ضمير ذلك الفتى الذي كنته ، بعنترة المتحرك في اهابه ، فقتله شر قتلة : لقد شفاني من داء البطولة .

وما كدت ارتاح من هياج عنترة حتى تحرك فيَّ السندباد ، اذ اصبحت بمثل التناسخ ، فتى يقضي وقته على اهبة الطواف حول الارض ضاربا في مجاهلها ومعالمها ، جوابة تتقاذفه الفلوات والحواضر. فكنت في ذلك العهد السعيد وقصاراي قراءة كتب الاسفار آناء الليل ، ورحلة بالترام على خط المنارة ذهابا وايابا ، اطراف النهار. ولا اعلم من قتل في نفسي هذا السندباد الذي لم يكن برياً يعرف ، ولا بحريا يوصف ، ولا جوياً على التأكيد . المهم انه لحق بعنترة في عالم الذكرى

كما قر عيناً بالاياب المسافر .

ويلوح لي ان في نفس كل امرىء ثلاث جثث من هذا النوع على الاقل : عنترة عبس ، فسندباد الف ليلة وليلة ، فمجنون ليلى ، في ثلاثة اضرحة ، مكتوب على قبرياتها : « هو الحي الباقي ! » دون تاريخ .

فلا عجب اذا قلت الان اني اصبحت في النظم ثالث ذينك الرجلين او صنوهما : يتلجلج الشعر في خاطري ويتلعثم به لساني ، ويهم بي وأهم به ، ثم تدركني رحمة ربي فامسك ، معزيا النفس كلما دعيت

الى مآدب الشعراء ، او تطفلت عليها و كثيراً ما افعل ، بوقفة عند طرف المائدة ، على عتبة الباب .

هكذا كنت على عتبة الباب ، منذ نحو عشرة اعوام ، في مأدبة «القفص المهجور» فكتبت مقدمة تلك المجموعة الاولى التي نظمها يوسف غصوب . لا اقول هذا مذكراً ، فليس في الامر كبير طائل ، ولكن المجموعة الثانية «العوسجة الملتهبة» التي اتحفنا بها الشاعر بعثت الساعة ، في خاطري ، صوراً غامضة من ذلك العهد البعيد ، تتسلل في خفاء الجدران خجلة وجلة ، بين زخارف العصر الجديد .

واخال اني كنت يومذاك قادراً على مسايرة الجيل خطوة خطوة في مناحي ادبه ، فقلت في هذا الشعر ما قلته عن دراية وبصيرة ، ثم بلغ مني الاعجاب فخرجت من تلك المأدبة الملكية الى السوق متغنياً بقصائد الشاعر المختار . فحبذا لو استطيع اليوم ، وقد مشى الجيل وانا لا ازال في مكاني ، حيث تركني ، وعلى كاهلي عشرة اعوام ، ان اصطنع العربدة في مأدبة «العوسجة الملتهبة» ، بل هذا العرس الاشقر ، بلغة العصر .

حسبي اليوم ان امكث في مجلسي ، عند طرف المائدة ، على عتبة الباب ، كالمشدوه ، في عينيه رؤى السحر من ذلك العالم الآخر .

١٩٣٧

تصحيح خطأ

ص ٢٨	س ١٩	بالارواح الخيرة
ص ٤٦	س ٧	القروح المصدّة
ص ٩٨	س ٤	فقدر جرير
ص ١٢١	س ١٢	كاتباً راوية

صفحة

انتهى طبع هذا الكتاب

في «دار المكشوف»

في بيروت ٢٨ ايار سنة ١٩٣٨